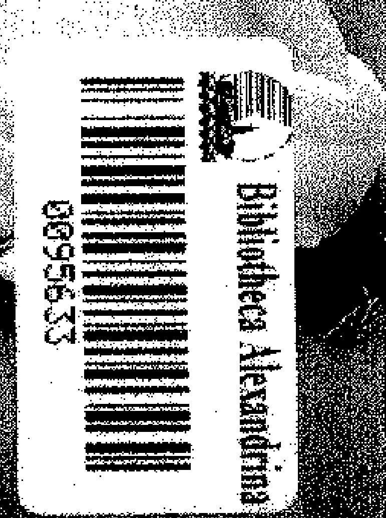
تأليف : أسامه حسن





رجال لهم تاريخ



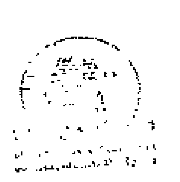
الناشر :	دار الأمل
العنوان :	٨ شارع عبد العزيز حامد ـ أول الملك فيصل ـ الهرم
تليفون :	٥٨٦٠٨٩٢
رقم الإيداع :	٨٠٢٧ / ٩٨
الترقيم الدولي :	977 - 5823 - 20 - x
طبع :	مطابع الوادى الجديد
العنوان :	دار السلام

جمع وإخراج	أرمس للكمبيوتر
وتصميم الغلاف	٣٢ ش على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة ـ لاظوغلى
تليفون	٣٥٦٤٤٠٤
الطبعة الأولى	١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م

رجال لهم تاريخ

تأليف

أسامة حسن



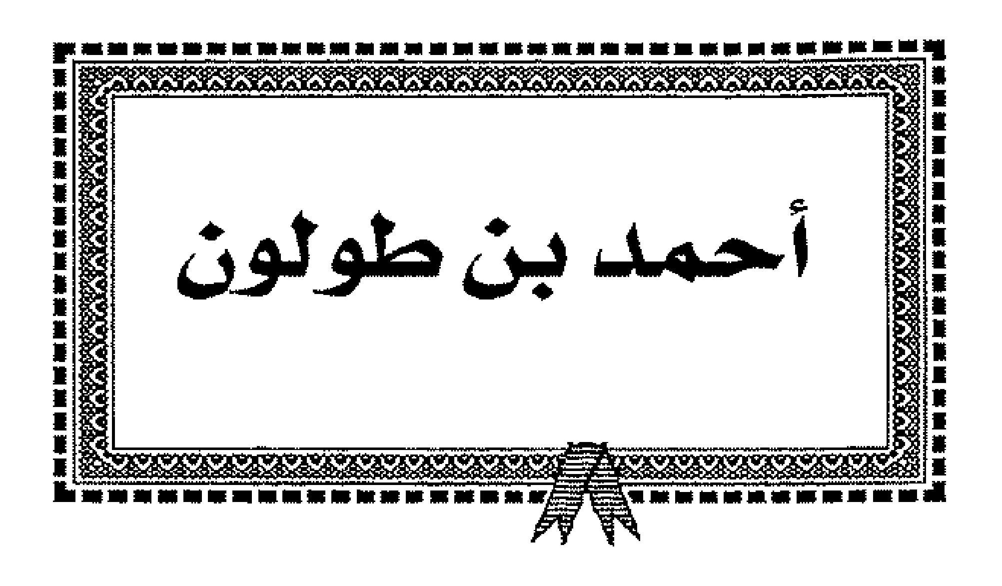
دار الأمل للنشر والتوزيع

المقدمة

يبرز من بين الصفوف رجال يقودون المسيرة، ويصنعون النصر بقدراتهم وإمكاناتهم فيتحرك من خلفهم الزحف ليحقق النصر الكبير . . . ومنهم من تكون حياتهم سلسلة من الإصلاحات التى تنهض بالأمة، وتأخذ بأيديها على طريق التقدم والرقى، فيكتب سطرًا أو صفحة أو سجلاً حافلاً من سجلات التاريخ . .

إن كل من صنع لبلادنا مجداً أوحضارة يستحق منا أن نشكر له جهده، ونبارك مساعيه، فلعل الأيام تخرج لنا من بين الصفوف الحاضرة من يضاعف من البناء ويعلى صرح الوطن ويزيد الأعلام رفعة وسمواً.

أسامة حسن


أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

مؤسس الدولة الطولونية فى مصر

« ٢٥٤ـ ٢٩٢ هـ » - « ٨٦٨ـ ٩٠٥ م »

هو مؤسس أول دولة عربية إسلامية فى مصر، وأول دولة مستقلة فى مصر الإسلامية العربية، كان طولون مملوكاً تركياً من منغوليا ويقال: إنه كان ضمن الجزية التى أرسلها حاكم بخارى إلى البلاط العباسى فى سنه من السنين. يقال أنه كان مملوكاً لنوح بن أسد والى بخارى، وأن نوحاً عتقه وأهداه إلى الخليفة المأمون، إلى أن وصل بغداد سنة « ٢٠٠ هـ ـ ٨١٦ م » .

واسم طولون مشتق من كلمة تركية بمعنى البدر الكامل، وصل طولون إلى رياسة حرس الخليفة بفضل مواهبه وصفاته العسكرية.

وقد ولد ابنه أحمد فى رمضان سنه ٢٢٠ هـ (سبتمبر ٨٣٥م) وأكبر الظن أنه لم يولد فى سامرا والأرجح أنه ولد فى بغداد.

كما أن هناك بعض الأقوال تقول : إن أحمد لم يكن ابناً حقيقياً، ولكن طولون تبناه.

وعلى أى حال فإن أحمد بن طولون أصبح يتيماً فى شبابه، فقد مات أبوه طولون سنه ٢٤٠ هـ (٨٥٤م) وتزوجت أمه من « بغا الأصغر » أحد زعماء الجند الترك، ثم تزوجت بعد ذلك من « باكباك » .

والظاهر أو أغلب الظن أن أحمد بن طولون وأخاه موسى تلقيا التعليم العسكرى الذى يؤهلهما للعمل فى جند الخليفة، وقد درس أحمد الفقه وانصرف إلى دراسة الحديث ثم تزوج من « خاتون ابنة عمه يارجوخ ».

وولد لابن طولون من ابنة عمه ابنه « العباس » وطلب أحمد بن طولون من الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يعين فى طرسوس ليستطيع أن يتصل بمن فيها من الأئمة والفقهاء بعيداً عن شغب الجند.

أحمد بن طولون والخليفة المستعين

ويذكر المؤرخون حادثاً وقع له في رحلته عند العودة إلى سامرا، وأبدى فيه من الشهامة وعلو الشأن مما قربه إلى الخليفة المستعين، وفي طريق عودته من طرسوس انضم إلى قافلة كانت مؤلفة من خمس مائة رجل، وكانت هذه القافلة راجعة من بلاد الروم تحمل متاعاً للخليفة العباسي المستعين، وأغار الأعراب من قُطّاع الطرق على هذه القافلة على مقربة من مدينة الرها، ولكن أحمد بن طولون حارب المعتدين وأنقذ القافلة وحفظ متاع الخليفة، ولما وصلت القافلة إلى سامرا وأخبر رئيسها الخليفة المستعين بما حدث، بعث الخليفة إلى أحمد بن طولون بألف دينار ووثق به وقربه إليه.

وكان أحمد بن طولون على علاقة طيبة بالمستعين، حتى أن هذا الخليفة، عندما اعتزل العرش وطلب أن يختار رفيقاً يصحبه إلى واسط ثم مكة وقع اختياره على أحمد بن طولون، ومضى أحمد بن طولون بالمستعين إلى واسط وأحسن معاملته، ولكن جند الترك خافوا من المستعين فطلبوا من ابن طولون أن يقتله ولكنه امتنع، ولكن الجند أنفذوا سعيد الحاجب فقتل المستعين.

وقال أحمد بن طولون بعد ولايته مصر: « كان غاية ما وعدنا به على قتل المستعين ولاية واسط، فتركت ذلك لله عز وجل فعوضني الله ولاية مصر والشامات وسعة الأحوال معهما ».

ولكن أحمد بن طولون حين عاد إلى سامرا لم يمكث فيها طويلاً، فقد استولى على السلطان التفوذ، الجند الترك الذى نصبوا المعتز على عرش الخلافة وكان أعظم الجند شأناً باكباك الذى كان قد تزوج من والدة أحمد بن طولون الذى أقطع مصر سنة ٣٥٤ هـ (٨٦٨ م) ولكن باكباك اختار أحمد بن طولون ليكون نائباً عنه في مصر. فقدم أحمد بن طولون إلى وادى النيل سنه ٢٥٤ هـ (٨٦٨م). وكان نائباً عن واليها ويبدو أنه كان يفكر في الاستقلال بمصر.

أحمد بن طولون فى مصر

جاء ابن طولون إلى مصر فى رمضان سنة ٢٥٤ هـ (منتصف سبتمبر ٨٦٨ م) ومعه بعض الجند أراد بذلك أن يدافع عن نفسه فى أى ثورة قد يقوم بها الشعب ضده.

والتقى ابن طولون عند وصوله « بأحمد بن المدبر » عامل الخراج، و « شقير» الخادم عامل البريد، وكان عامل البريد شقير عين والدة الخليفة المعتز. أما ابن المدبر فإنه جاء إلى مصر عاملاً على خراجها وكان ابن المدبر داهية فى الحكم، وحصل فى مصر على سلطان واسع وكان ابن المدبر قد بدأ حياته فى وظائف الدولة فى عهد الخليفة الواثق وتقدم سريعاً فى أعمال المالية فى عصر المتوكل.

ولجأ ابن المدبر إلى بعض الأساليب ليزيد من جمع الأموال الطائلة لنفسه وليقدم الهدايا والأعطيات إلى الحكومة المركزية، حتى يأمن على مركزه، ولذلك كان يغتصب ثروة الأغنياء ويطمع فى أموالهم، ولجأ إلى ضرائب جديدة ولجأ إلى القسوة فى جباياتها وزاد بؤس الشعب فى مصر من عبء الضرائب مما أدى لقيام بعض الثورات فى الإسكندرية والجيزة.

ولكن (أحمد بن طولون) وجد (ابن المدبر) يعيش فى أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم، فكان يصحبه حرس من مائة شخص، امتازوا بقوتهم.

وقدم (ابن المدبر) للقاء (أحمد بن طولون) ومعه الحرس وقدّم إليه هدية من نحو عشرة آلاف دينار، فرفضها (ابن طولون) ولكن ذلك أثار عجب (ابن المدبر) الذى لم يتعود أن ترفض هداياه.

ولكن (ابن طولون) أرسل إلى (ابن المدبر) يبلغه أنه يسره أن يتقبل منه المائة حارس الذين يحيطون به في غزاوته لأنهم ألزم له.

ولم يشأ (ابن المدبر) أن يخاطر، واضطر إلى التنازل عن هذا الحرس، وبذلك فقد جزءاً كبيراً من سلطانه وعظمته. ومن ذلك بدأت الحرب الخافية التى انتهت بفوز (ابن طولون) على (ابن المدبر).

ولما أدرك ابن المدبر وشقير أن أحمد بن طولون سيكون صعب المنال، وأن نفوذه سيُغطى على ماكانا يتمتعان به من سلطان، فقد بدءا دسائسهما، ولكن ابن طولون كانت له علاقه طيبة ببعض أقطاب الحكم فى سامرا وأفلح فى استمالة (حسن بن مخلد) وكان حسن قد أصبح وزيراً للمعتمد مع بقائه كاتباً لأخيه الموفق، وقدّم حسن بن مخلد إلى ابن طولون خدمة جليلة، فلم يكن يخبره بالدسائس فقط التى كان يدبرها أعداؤه، بل أرسل إليه الكتاب الذى كان شقير قد أرسله إلى عاصمة الخلافة، ثم أرسل ابن طولون إلى شقير ليجزيه على ذلك شر الجزاء.

استطاع أحمد بن طولون أن يحصل على قرار من الخليفة المهتدى بعزل ابن المدبر عن ولاية الخراج فى مصر.



أحمد بن طولون والموفق

أرسل (الموفق) شخصاً اسمه (نحرير) إلى أحمد بن طولون يطلب منه إرسال النقود والمنسوجات والعبيد والخيل، وهى الجزية التى اعتادت مصر إرسالها إلى العراق.

والجدير بالذكر هو أن المعتمد أرسل فى الوقت نفسه رسالة سرّية إلى ابن طولون يحذره فيها من نحرير ويخبره بأنه لم يرسل إلى مصر إلا بإرادة الموفق وبأنه جاسوس مكلف بتدبير الدسائس ضد ابن طولون نفسه، وبين الضباط والجند فى مصر.

واستقبل ابن طولون نحرير فى قصره ولم يمكنه من الاتصال بأحد أثناء إقامته فى مصر وسلم ابن طولون نحرير مليون ومائتى ألف دينار فضلاً عن الخيل والأقمشة. ولكن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع وكتب إليه، وذكر أن الحساب يوجب على ابن طولون أضعاف ما سلمه إلى نحرير، وكتب إليه يعنّفه ويهدده، وما كان من أحمد بن طولون إلا أن رد عليه بكتاب طويل لاذع، والحق أن خطاب ابن طولون إلى الموفق كان بلغة غير معهودة من الولاة قِبَلَ أصحاب النفوذ فى البلاط العباسى، ولكنه بلغة أمير اطمأن إلى قوته واستقل بشئونه.

وتقدم جيش (موسى بن بغا) مرسلاً من قبل الموفق ؟ ولكن أحمد بن طولون بدأ فى تحصين مصر ولكن جند موسى بن بغا ساد بينهم الاضطراب وثاروا وطلبوا أعطياتهم المتأخرة وأحس موسى بقوة خصمه وأدرك أنه لن يستطيع أن ينال منه شيئاً.

وهكذا فشلت المحاولة الوحيده لإخضاع ابن طولون، وعجز الموفق عن إثبات سلطانه فى وادى النيل، وأصبح ابن طولون صاحب الأمر والنهى، وقد شيّد فى

جزيزة الروضة حصناً لتأوى إليه أسرته ومعها الثروة والكنوز التى جمعها فى حياته كما شيّد أسطولاً لحماية عاصمته من جهة النيل.

وهكذا نرى أن ابن طولون تقدم فى مدة خمس سنوات، فقد جاء مصر نائبًا عن والى مصر، حتى وصل إلى مرتبة الإمارة التى لم يستطع أن ينازعه فيها الموفق وقد أصبح لابن طولون جيش قوى العدد والعدة.



حملة أحمد بن طولون على الشام

كان لفشل القوات فى تأديب ابن طولون دافعاً لزيادة مطامعه الواسعة وكانت الفرصة مواتية، فقد مات (موسى بن بغا) وكان (الموفق) مشغولاً بحرب الزنج.

كما أصبح لابن طولون جيشاً كبيراً وذلك لان مصرَ والشام تربطهما مصالح تجارية وحربية كما أن كل منهما يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب وكانت وفاة (أماجور) سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) فرصة انتهزها ابن طولون لتحقيق أطماعه، وكان يتوق إلى مد حدود دولته إلى طرسوس وأعلن ابن طولون رغبته فى الجهاد لحماية حدود الدولة الإسلامية ضد البيزنطيين فى أسيا الصغرى، وبذلك تكون حملته على الشام لها سبب يستند إليه ويبرره.

وترك أحمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه (الواسطى) يساعدة بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له.

وكان (الموفق) هو الرجل الوحيد الذى يستطيع مقاومة ابن طولون، ولايزال مشغولاً بحروب الزنج.

وسار ابن طولون بجيشه حتى وصل مدينة الرملة فى فلسطين، حيث قدّم إليه حاكمها فروض الطاعة، ولكن ابن طولون يريد كسب القلوب فى الشام وقد ثبت هذا الحاكم فى حكمه.

أما فى دمشق فقد استقبله الواليان على بن أماجور وأحمد بن دوغباش اللذين كانا وصيان على هذا الوالى الصغير وعندما أقبل أحمد بن طولون نزل الاثنان عن مطيتهما احتراماً له، بل لقد أمرا بالدعاء له فى الصلاة، وكذلك خضعت حمص وحماه وحلب، ولكن انطاكية حاصرها وكانت مدينة حصينة.

وكتب ابن طولون إلى « سيما الطويل » حاكم المدينة يدعوه إلى الخضوع ودام الحصار إلى أن استطاع ابن طولون التعرف على موطن ضعف أسوار المدينة ودخل أحمد بن طولون المدينة سنه ٢٦٥ هـ.

وصل ابن طولون إلى «طرسوس» و «حرّان» وكذلك الرقة، وفى أثناء ذلك قام «العباس» ابنه بثورة، وقد توترت العلاقات بين العباس وأصحابه وبين الوزير (الواسطى) وكتب الواسطى إلى أحمد بن طولون عدة رسائل يبن له فيها حقيقة الحال وكان ابن طولون يرد عليها ويطلب من «الواسطى» الصبر حتى يعود.

ولكن «العباس» أمر بالقبض على «الواسطى»، وأخذه معه وسار بجيشه وعسكر عند الجزيرة وكبل الواسطى بالحديد وسار إلى الإسكندرية، ثم فر بجيشه إلى برقة.

وعاد ابن طولون إلى مصر، ولكن «العباس» رأى أن يبعد عن أملاك أبيه واتجه إلى إفريقيا. حتى وصل إلى مدينة بعيدة فاستقبله أهلها وأكرموه، ولكن الجند نهبوا المدينة وقتلوا الرجال.

واستغاث أهل البلدة (بإلياس بن منصور النفوسى) زعيم الخوارج الأباضية، وسار إلياس إلى «العباس» فى اثنى عشر ألف مقاتل، واستطاع العباس أن يفلت إلى برقة بعد أن هزم هزيمة فادحة.

وأرسل أحمد بن طولون جيشًا لمحاربة «العباس» فى «برقة» ، وفى تلك الأثناء كان (الواسطى) قد أفلح فى الهرب من أسر «العباس»، ولقى «أحمد بن طولون» فى «الإسكندرية» سنة ٢٦٨ واستطاع الجيش أن يهزم «العباس» وأعوانه فى برقه، وجئ بالعباس إلى القسطاط وأمر «أحمد بن طولون» بضرب ابنه بالسياط وزج به فى السجن.

أحمد بن طولون

يؤسس إمبراطورية مصر الإسلامية

بعد أن تم لأحمد بن طولون النصر فى حملته على الشام وإخضاع ابنه «العباس» ، أخذ فى إضافة اسمه إلى اسم الخليفة على النقود ولكن (لؤلؤاً) الذى عهد إليه بحكم «حلب» و «حمص» و «قسرين» انضم إلى (الموفق) وبعث إليه الأموال التى كان عليه أن يرسلها إلى أحمد بن طولون.

وكان ذلك حافز لأحمد بن طولون على الخروج ثانية إلى بلاد الشام وكان ابن طولون يريد أن يلحق بلؤلؤ ويؤدبه على خروجه .

ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون إلى مقره الشام بقصد التوسع وإنما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته على البلاد التى ضمها إلى مصر واستخلف ابن طولون على مصر ابنه خمارويه وسار أحمد بن طولون حتى نزل «دمشق».

كان تاريخ أحمد وتاريخ أسرته ليس إلا صراعًا بينهم وبين الخلافة العباسية وإذا كان التقليد والحق الشرعى بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكماً عاماً على مصر.

ولكن «أحمد بن طولون» لم يشأ أن يترك حكم مصر واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتمد والموفق واستطاع بعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتاً، وأراد أحمد بن طولون أن يجعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ولكن مشروعه فشل.

وقد ظهرت نية «أحمد بن طولون» فى توريث ملكه لأولاده فقد استخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج إلى الشام والثغور منه ٢٦٤ هـ كما استخلف «خمارويه» أيضًا.

الجيش والبحرية

اشترى «أحمد بن طولون» عبيداً من الروم والسودان لإنشاء الجيش وبلغ الجيش ٢٤ ألف مملوك من الترك و ٤٠ ألفاً من السود وسبعة آلاف حر مرتزقة ، وكان حفظ النظام بين هذه الجنود أمرًا شاقاً يتيسر لأحمد بن طولون الوصول إليه بسهولة بل إنه لم يصل إليه إلا بفضل صفاته الشخصية وحزمه وكرمه وبعد نظره.

ولما فتح «أحمد بن طولون» الشام انضم إلى جيشه جنود تلك الأقاليم ،والحق أن المسألة المالية كانت تفوق كل شيء فى علاقة أمراء بنى طولون بجيشهم ، وبذلك استطاع أحمد بن طولون أن يعتمد على الجيش، وكان أحمد بن طولون كثيرًا ما يستعرض الجيش فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجُمع.

أصبحت مصر مركزًا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة، وكانت هذه الصناعة مركزة فى جزيرة الروضة ،وكان لبناء السفن فى مصر فى فجر الإسلام شأنًا عظيمًا ، وقد عنى أحمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش ولكن لم تتضح الحاجة الماسة إلى الأسطول إلا بعد توسع أحمد بن طولون فى «الشام»، إذ اضطر إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى، ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام، ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية ، ولكن زادت عناية أحمد بن طولون بالناحية البحرية عندما ظهرت مشروعات الموفق للقضاء عليه. كما أتاحت حملة الشام استخدام أسطوله وقد أنشأ قاعدة بحرية فى عكا.



الإدارة فى عهد أحمد بن طولون

ومن الوظائفُ التى يمكننا الكلام عنها فى العصر الطولونى:

١ ـ الحاجب :

كان للحاجب شأن خطير فقد كـان بمثابة كبير الأمناء أو رئيس الديوان، وكان واسطة الاتصال بين الأمـير وأفراد رعيته، وأكبر الظن أن «أحـمد بن طولون» لم يسمح لأحـد من أتباعـه بأن يزداد نفوذه وسلطانه حـتى يكون « حاجبـاً » بالمعنى الذى وصل إليه هذا اللقب فى رئاسة ديوان الأمير وعظم النفوذ فيه.

٢ ـ الـوزيـر :

هذا المنصب كان غـير موجودًا فى مـصر الطولونية ، ولعل ذلك راجـعًا إلى طبيعـة أحمد بن طولون، التى كانت تسـمح لأشخاص كثيـرين بأن يكونوا أعواناً ونصحـاء ومستشارين ، ولـكنها تأبى أن يصل أحدهم إلى قسط وافـر من النفوذ والسلطان فى أمور الحكومة.

٣ ـ صاحب الشرطة :

كان صاحب الشـرطة فى مصر بعد فتح العرب لـها بمثابة نائب للوالى ، يؤم الناس فى الصـلاة إذا مـرض الوالى، ويحكم الولاية إذا خـرج الوالى من مـقـر ولايته. وكـان والى مصـر هو الذى يعين صـاحب الشرطة، وكـان مقر صـاحب الشرطة الفسطاط.

٤ ـ عامل البريد :

كانت وظيفـة صاحب البريد أو عامل البـريد من الوظائف الرئيسيـة الهامة ، ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفـاء الراشدين ، وكان من واجبات عمال البريد فى البلاد المختلفة أن يكتبوا تقارير يرسلونها إلى الحكومة المركزية.

٥ ـ مدير السجون :

كان للسجون فى الدولة الطولونية شأنًا كبيرًا، وإذا صح ما كتبه المؤرخون فإن أحمد بن طولون قد ترك ثمانية عشر ألف شخص فى السجون.

ولذلك كانت إدارة السجون يتولاها موظف كبير ممن خدموا الأمير. كما توجد وظائف أخرى مثل مدير دار الصناعة وكاتب السر والسكة.

أحمد بن طولون والاقتصاد

اعتمد «أحمد بن طولون» على الخراج باعتباره المورد الرئيسى لميزانية الدولة وأداة سياسة أحمد بن طولون وخمارويه إلى الرخاء فى البلاد ، وذلك لبقاء إيراد البلاد فيها دون أن يتسرب شىء منها إلى الخلافة العباسية.

وكانت أولى الخطوات التى أخذها «أحمد بن طولون» فى سبيل تدعيم الاستقلال وأن يصبح مسيطراً على خزانة الدولة أثناء حربه مع (ابن المدبر)، وبذلك استطاع إقصاء «ابن المدبر» عن الخراج ، وأصبح ديوان الخراج خاضعاً لأحمد ابن طولون.

وقد عنى «أحمد بن طولون» بتشجيع الزراعة وتسهيل الرى، ليتمكن من استغلال الأرض كما اهتم بحماية الفلاح من ظلم الجباة وعسفهم، وأمدت الدولة الفلاح بحاجته من البذور والآلات الزراعية مما أدى إلى نهضة زراعية كبرى.

وامتد ذلك الاهتمام إلى الصناعة ،والصناعات التى ازدهرت على رأسها صناعة النسيج والأقمشة الثمينة ، وكذلك هناك صناعة الأسلحة وكذلك استخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب ، وكذلك صناعة الورق البردى وصناعة السكر وصناعة الخشب ، وكذلك صناعة الخزف. وكذلك التجارة كانت لها الأهمية العظمى بسبب موقع مصر الجغرافى المتميز .



الأثار والفنون

جاء «أحمد بن طولون» إلى مصر وأسس الدولة الطولونية فيها ونشأ في مصر ما يعرف باسم الفن الطولوني ، ولم يكن الفن الطولوني مستقلاً كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية ، فقد كان تابعاً إلى حد كبير، وفي الوقت نفسه كان منافساً له ، وأراد «أحمد بن طولون» أن يتخذ لنفسه بلاطًا مثل بلاط الخليفة العباسي في سامرا وبغداد بل يفوقه في الأبهة والعظمة.

وجعل «أحمد بن طولون» مدينة القطائع عاصمته الجديدة في المكان الواقع في سفح جبل يشكر إلى الشرق من العسكر والشمال الشرقي من الفسطاط، وكان «أحمد بن طولون» حكيماً في إنشاء القطائع، فقد أمكنه بذلك إبعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية ، وتجنب بذلك ما كان ممكناً حدوثه من الشغب بسبب اختلاط الجند بالتجار أو الشعب.



جامع أحمد بن طولون

ويتكون «جامع ابن طولون» من صحن مربع مكشوف طول كل ضلع فيه نحو اثنين وتسعين متراً ، أما مساحته تبلغ نحو ٨٤٨٧ متراً مربعاً ، وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة ،وتقع القبلة في أكبر هذه الأروقة.

وبين جدران الجامع وسوره الخارجي ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات. وهو مشيد بآجر أحمر داكن، ويمتاز الجامع بالمئذنة وهي مشيدة من الحجر ، وتتكون من قاعدة مربعة عليها طبقة إسطوانية عليها أخرى مثمنة ، وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزوني.

ويعتبر «جامع أحمد بن طولون» من أهم وأقدم الآثار العربية في مصر ، وذلك لأن «جامع عمرو بن العاص» وهو أقدم جامع في مصر لم يبق على حاله.

كما شيد «أحمد بن طولون» قناطر للمياه ، وكان الماء يسير في عيونها إلى

القطائع، وذلك لأن عاصمته الجديدة كانت محتاجة إلى تدبير المياه لها، وقد بُنيت القناطر بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى.

كما أنشأ «أحمد بن طولون» بيمارستان للمرضى، وكان قد جعل به حَمَّامَين أحدهما للرجال والآخر للنساء وأدخل أحمد بن طولون بعض النظام، وكذلك كان يعطى للمريض الأدوية والأغذية مجاناً، حتى يتم شفاؤه وبلغ حرص أحمد ابن طولون بالبيمارستان أنه كان يتفقده بنفسه كل يوم جمعة، ويتفقد أعمال الأطباء والأدوية. كما قام بإصلاح مقياس النيل بالروضة وإصلاح منارة الإسكندرية.

أخلاق أحمد بن طولون

اشتهر أحمد بن طولون بالتقوى، لأنه تلقى فى صباه تعليماً دينياً، وكان رجلاً زكياً، بعيد النظر حاذق الفراسة،

ومن أعظم صفات أحمد بن طولون والذى أثرت فى حياته السياسية هو الكرم الذى استطاع بواسطته أن يكسب رجالاً كثيرين.

ولكن مهارته الإدارية كانت من أهم صفات النجاح. فكان لا يلجأ إلى القوة إلا إذا أعيته الحيلة، وهو شديد الحذر من أعوانه وكُتابه، كما امتاز بالشجاعة والنشاط والعلم.

ومع اشتداد المرض عليه سنة ٢٧٠ هـ لم يمنعه ذلك من متابعة الإشراف على دولته الواسعة، وقد وافته المنية في ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ بعد أن حكم مصر ستة عشر عاماً.




الناصر
صلاح الدين

صلاح الدين بن أيوب

أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب من أهل مدينة دوين أحد مدن أرمنية ، قصدا العراق عند مجاهد الدين بهروز الذى كان ينوب عن سلطان السلاجقة على بغداد وعهد بهروز إلى نجم الدين أيوب بالولاية على تكريت فأقام بتكريت ومعه أخوه شيركوه وفي هذه الأثناء قامت الحرب بين عماد الدين زنكى حاكم الموصل والخليفة العباسى المسترشد وهزم زنكى عند تكريت سنة ١١٣٢ وأسرع نجم الدين أيوب بتقديم المعونة والمساعدة إلى زنكى وأقام نجم الدين السفن التى ساعدت زنكى وأصحابه على الفرار .

ولكن نجم الدين أيوب لم يطل بقاؤه فى تكريت إذ عزله مجاهد الدين بهروز عنها ويقال أن السبب هو مساعدته لـزنكى أو أن أسد الدين شيركوه قتل إنساناً بتكريت ظلماً .

وغادر نجم الدين أيوب ومعه أخاه أسد الدين شيركوه تكريت فى نفس الليلة التى ولد فيها صلاح الدين وتوجه نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه إلى الموصل حيث رحب بهما عماد الدين زنكى ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك عين نجم الدين أيوب ولياً عليها واستمر على ذلك حتى قتل عماد الدين زنكى وتولى بعده ابنه نور الدين محمود ودخل أسد الدين شيركوه فى خدمة نور الدين محمود صاحب حلب وأصبح شيركوه مقدماً على سائر أمراء نوز الدين محمود حتى أقطعه مدينتى حمص والرحبة . وعندما أراد نور الدين محمود ضم دمشق ساعده فى ذلك نجم الدين أيوب فى تسليم دمشق وبذلك أصبح كل من نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فى أعلى الرتب عند نور الدين محمود .



خروج شيركوه وصلاح الدين
إلى مصر

عهد نور الدين محمود إلى القائد أسد الدين شيركوه إلى أمر الحملة التى تخرج إلى مصر ، خرج شيركوه إلى مصر سنة ١١٦٤ ومعه ابن أخيه صلاح الدين وشاور وعندما علم ضرغام بأن شيركوه فى الطريق إليه استنجد بالصليبيين وتعهد لعمورى بأن تصبح مصر تابعة للملك الصليبى ولكن شيركوه استطاع أن يصل إلى مصر قبل الصليبيين وانتصر أسد الدين شيركوه عند تل بسطا على جيش ضرغام واستطاع شيركوه أن يصل إلى أسوار القاهرة وقتل ضرغام أثناء محاولته الفرار وتولى شاور أمر الوزارة ولكن شاور كان خبيثاً وسرعان ما تناسى وعوده لنور الدين محمود ورفض أن يدفع لشيركوه المال المتفق عليه وطلب من شيركوه الخروج من مصر ولكن شيركوه احتل بلبيس والشرقية واستنجد شاور بالصليبيين ووعدهم بمبلغ من المال مقابل المساعدة ضد شيركوه فحاصر الصليبيون وشاور أسد الدين شيركوه ولكن تم الاتفاق على أن يغادر كل من شيركوه وعمورى الأول مصر على أن يدفع شاور ثلاثين ألف دينار لشيركوه .

الواقع أن خروج نور الدين والصليبيين من مصر بعد هذا الاتفاق وبعد أن وقفوا على مقدار ثروة هذه البلاد وضعفها ، لذلك أرادوا الرجوع من جديد ولكن نور الدين محمود خشى أن يشتت جهوده ضد الصليبيين ولذلك لم يرسل حملة إلى مصر فى سنة ١١٦٥ أو سنة ١١٦٦ حيث كان الموقف فى الشام بالغ الحساسية ويتطلب اليقظة والانتباه ولكن نور الدين محمود خاف أن يستفيد الصليبيون من ثروة مصر وكذلك أرسل الخليفة العاضد الفاطمى يستنجد بنور الدين محمود ضد شاور وعلى أثر ذلك غادر دمشق أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين سنة ١١٦٧ على رأس حملة ثانية إلى مصر ، ولكن شيركوه عندما أدرك الدلتا خاف من استنجاد شاور بالصليبيين لذلك عبر النيل إلى الجيزة واستنجد شاور

بالملك عمورى الأول ملك بيت المقدس وعقدوا الصليبيون اتفاقية مع شاور الذى تعهد بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة طرد الصليبيين لشيركوه على أن يدفع نصف المبلغ فوراً واستعد الصليبيون لمهاجمة شيركوه وعبروا النيل وقرب الأشمونين فى المنيا حدثت معركة البابين فى سنة ١١٦٧ واشترك فى المعركة صلاح الدين وهزم الصليبيين فى هذه المعركة .

اتجه شيركوه إلى الاسكندرية ولم يكد يقترب من الاسكندرية حتى فتح أهل الاسكندرية أبواب مدينتهم ليدخل فى هدوء وذلك لأن أهل الاسكندرية أحسوا بمدى الخطر الصليبى وخاف أسد الدين شيركوه أن يحاصره الصليبيون داخل الاسكندرية فترك ابن أخيه صلاح الدين فى الإسكندرية ومعه بعض الجند واتجه هو إلى الصعيد مع الجزء الأكبر من الجند فاستولى عليها وأخذ يجمع الغنائم وفى هذا الوقت صار عمورى لحصار صلاح الدين فى الاسكندرية واشتد الحصار وقل الطعام وأرسل صلاح الدين إلى عمه يطلب النجدة فأرسل شيركوه يطلب عقد صلح مع الصليبيين على أن يترك عمورى وشيركوه مصر لشاور ولكن عمورى الأول جعل مصر تحت الحماية الصليبية وعليها أن تدفع جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار مع بقاء قوة من فرسان الصليبيين تحمى القاهرة .

ولكن سرعان ما أثقلت الجزية كاهل البلاد ونضبت مواردها ولذلك رأى شاور أن يتصل بنور الدين محمود ويطلب المساعدة واتفق الطرفين وحاول شاور تأكيد الاتفاق عن طريق الزواج وعرض أن يتزوج ابنه الملك الشجاع من أخت صلاح الدين أو أن يتزوج صلاح الدين من ابنة شاور .

ولكن الملك عمورى الأول دخل إلى بلبيس على رأس جيش بعد أن حاصرها ولم يكد يسمع نور الدين بغزو مصر من جانب عمورى الأول ملك بيت المقدس وأسرع إلى تجهيز حملة ثالثة على رأسها شيركوه وابن أخيه صلاح الدين سنة ١١٦٨ وقد خرج صلاح الدين مع عمه كارهاً إذ قال « والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها ، فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها ما لا أنساه أبداً » .

وفرح أهل مصر بقدوم شيركوه فرحاً كبيراً أمام هذا الترحاب ، رأى عمورى الأول أن ينصرف.ومعه رجاله وعسكر شيركوه عند أرض اللوق وأخلع الخليفة الفاطمى على شيركوه خلعة الوزارة وأرسل شاور إلى الصليبيين يستدعيهم على أن يكون مجيئكم فى دمياط فى البحر والبر ، وأراد شاور تدبير مؤامرة لقتل شيركوه وأمرائه وعلى ذلك انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل فى يناير سنة ١١٦٩ .



صلاح الدين يتولى الوزارة

ولكن سرعان ما توفى أسد الدين شيركوه ورأى أصحاب الخليفة العاضد أن يتولى صلاح الدين الوزارة وقالوا للخليفة « ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف « صلاح الدين » والرأى أن يتولى الوزارة فانه لا يخرج من تحت حكمنا » .

وتولى الوزارة صلاح الدين وكان سنه الحادية والثلاثين من العمر وقد تمنع صلاح الدين فى أول الأمر فى أن يتولى الوزارة وقد رأى الخليفة العاضد الفاطمى أن يتولى صلاح الدين الوزارة وذلك لصغر سن صلاح الدين وعدم خبرته حتى يكون أداة سهلة فى يد الخليفة الفاطمى على الرغم من وجود كبار أمراء نور الدين فى الحملة أمثال عين الدولة الياروقى وقطب الدين خسرو وسيف الدين على بن أحمد المشطوب وشهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين .

واستطاع صلاح الدين استمالة قلوب الناس إليه وضعف أمر العاضد الفاطمى وأحبه الجند وأمده نور الدين بقوة من العسكر وكان فيها أخو صلاح الدين شمس الدين توران شاه بن أيوب .

واستطاع صلاح الدين القضاء على رئيس بلاط قصر الخليفة الفاطمى بعد أن

عرف أن رئيس البلاط مؤتمن الخلافة يتصل بعمورى الأول والصليبيين للخلاص من صلاح الدين ولكن صلاح الدين رأى أن يقضى على مؤتمن الخلافة وأمر بقتله.

ولكن مقتل مؤتمن الخلافة أدى إلى ثورة السودانيين بمصر لأنه كان نوبى يتعصب للسودانيين الذين بمصر واجتمع السودانيون بالفسطاط ولكن صلاح الدين أمر باشعال النار فى الأماكن التى اعتصموا فيها بالفسطاط وطلبوا الأمان ثم انتقلوا إلى الجيزة وهناك أبادهم أخو صلاح الدين توران شاه بن أيوب .

ولكن صلاح الدين رأى أن يقضى على حرس الخليفة الفاطمى وكانوا من الأرمن وذلك حتى لا يقوم بثورة مثل السودان وبذلك استطاع القضاء على عناصر الخيانة في مصر . وكذلك رأى عدم الإبقاء على كبار ملاك الأراضى ولذلك أحل محلهم على أراضيهم جماعة من رجاله وذلك لأن كبار الاقطاعيين وملاك الأراضى كانوا يحرصون على أموالهم ولذلك كانوا يساندوا الفساد . كل ذلك كان يفعله صلاح الدين بوصفه نائباً عن نور الدين محمود . أمام ذلك أحس الصليبيون بالقلق والخوف على مصالحهم بعد ضم مصر إلى دولة نور الدين محمود ، ذلك لأن صلاح الدين ونور الدين محمود أحكما السيطرة على القواعد البحرية مثل الاسكندرية ودمياط ولذلك قرارى عمورى الأول ملك بيت المقدس إلى إرسال طلب المعاونة من الغرب الأوربى أمبراطور ألمانيا وملوك فرنسا وانجلترا وصقلية وغيرهم من كبار الحكام لانقاذ الصليبيين فى الشرق ولكن الأوضاع السياسية فى غرب أوربا حالت دون تحقيق رغبة الملك عمورى الأول وبذلك لم يجد سبيل إلا الاستنجاد وطلب المساعدة من الدولة البيزنطية وأعد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين أسطولاً كبيراً واتجه إلى صور ومنها إلى عكا استعداداً لغزو مصر واتجه الصليبيون براً إلى عسقلان ومنها إلى الفرما ومنها إلى دمياط وفى نفس الوقت اتجه الأسطول البيزنطى صوب دمياط وأسرع صلاح الدين إلى تحصين

بلبيس والقاهرة والإسكندرية ولكن الحملة اتجهت إلى دمياط ولذلك وجد نفسه فى موقف جساس وأرسل يطلب النجدة من نور الدين محمود وأرسل نور الدين النجدة تباعا واستطاع تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وشهاب الدين ـ خاله ـ دخول دمياط ولذلك أرسل صلاح الدين إليها النجدات والإمدادات وأمام ازدياد قوات صلاح الدين وجد الصليبيون أن الانتظار قد طال أمام دمياط وفى نفس الوقت كان نور الدين يهدد ممتلكاتهم فى الشام ولذلك قرروا العودة إلى عسقلان وأما السفن البيزنطية فقد استغل أهل دمياط جريان النيل ووضعوا على سطح الماء أوانى بها مواد مشتعلة كانت تصطدم بسفن الأسطول البيزنطى ونفذت الامدادات والتموين الذى كان مع القوات البيزنطية ولذلك غرق الكثير من السفن نتيجة عدم التحكم فيها على أثر الجوع والارهاق .

وأدى هذا الانسحاب إلى زيادة قوة صلاح الدين فى مصر وفقدت الخلافة الفاطمية الأمل فى التخلص منه .

ورأى نور الدين محمود أن يستغل وفاة قطب الدين مودود أتابك الموصل فى أن يستولى على الموصل سنة ١١٧٢ وأصبحت الجبهة الإسلامية تمتد من الفرات إلى النيل .

ورأى صلاح الدين أن يسير فى اتجاهين ، الأول الجهاد ضد الصليبيين والثانى العمل على توحيد القوى الإسلامية ولذلك خرج صلاح الدين فى سنة ١١٧٠ لمهاجمة قلاع الصليبيين وحاول الاستيلاء على غزة نفسها ولكن عمورى الأول مالبث أن جاء للدفاع عنها ولذلك عاد صلاح الدين إلى مصر بعد أن أنزل هزيمة بالصليبيين وعمل صلاح الدين على الاستيلاء على أيلة ولذلك بنى عدد من السفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال ثم ركبت واستخدمت فى الاستيلاء على أيلة بحراً .

أراد صلاح الدين توحيد القوى الإسلامية ولذلك عمل على القضاء على

الخلافة الفاطمية الشيعية وذلك لأن بقاء الخلافة الفاطمية فى مصر أصبح يمثل مشكلة كبرى بالنسبة لنور الدين وذلك لأن علاقات نور الدين محمود زادت مع الخلافة العباسية ولأن نور الدين محمود يعتنق المذهب السنى ولم يكن صلاح الدين أقل من نور الدين محمود فى هذا الشأن .

ولكن صلاح الدين ظل متخوفاً من إسقاط الخلافة الفاطمية وذلك لأنه أحس بتغيير شعور نور الدين نحوه ولذلك رأى أن يبقى على الخلافة الفاطمية لتكون سلاحاً يستخدمه عند الضرورة وأخذ صلاح الدين يماطل نور الدين فى القضاء على الخلافة الفاطمية ولكن نور الدين أرسل إليه إنذاراً نهائياً سنة ١١٧١ يأمر فيه صلاح الدين بأن يحل اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة العاضد فى خطبة الجمعة .

فحل اسم الخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين فى أول جمعة من سبتمبر سنة ١١٧١ محل الخليفة العاضد الفاطمى ومات العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام دون أن يعلم بسقوط خلافته .

وبذلك حدث التحول من المذهب الشيعى إلى المذهب السنى .

الخلاف بين صلاح الدين
ونور الدين محمود

بدأت الخلافات بين صلاح الدين ونور الدين محمود بعد وفاة الخليفة العاضد وإسقاط الخلافة الفاطمية فكان صلاح الدين يباشر سلطانه على مصر بوصفه وزيراً للخليفة العاضد وإضافة إلى ذلك أنه كان ينفذ التعليمات الصادرة من نور الدين بصفته نائباً عنه على مصر وكان صلاح الدين إما أن يرضى بطاعة نور الدين فى هذه الحالة يمكن نقله من مصر بناء على طلب سيده نور الدين وإما أن يستقل عن نور الدين ويجعل نفسه ملكاً على مصر .

ويظهر مدى خوف صلاح الدين من نور الدين عندما كان صلاح الدين يهاجم حصن الشوبك ولم تستطع حامية الحصن مقاومة صلاح الدين ولذلك طلبت مهلة عشرة أيام للتسليم ولكن صلاح الدين علم بأن نور الدين فى الطريق إليه لمساعدته وتخوف صلاح الدين من نور الدين إذا وصل إلى الشوبك بأن يأمر بالقبض عليه وعزله عن مصر ولذلك أسرع صلاح الدين بالانسحاب إلى مصر قبل وصول نور الدين إلى الشوبك واعتذر بأن كان لا بد من الاسراع بمساعدة أخيه الذى يحارب ما تبقى من الفاطميين فى الصعيد .

واستاء نور الدين من فعل صلاح الدين ولذلك أخذ نور الدين يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين وأسرع صلاح الدين بعقد اجتماع مع أهل بيته وأمرائه وأعلمهم ما بلغه عن عزم نور الدين فقال المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ـ إذا جاء « نور الدين » قاتلناه ومنعناه عن البلاد وأيد بعض الحاضرين رأى تقى الدين ـ ولكن الشيخ نجم الدين أيوب والد صلاح الدين تدخل فى الحال ، فشتم أولئك المتهورين ثم قال : « أنا أبوك وهذا شهاب الدين الحارمى خالك أتظن أن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا ؟ » قال صلاح الدين « لا » فقال والده نجم الدين أيوب « لو رأيت أنا وخالك هذا السلطان نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا !! فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا ؟ وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فأى حاجة إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد » .

وعندما خرج الجميع انفرد نجم الدين بابنه صلاح الدين قال له « أنت جاهل قليل المعرفة !! تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك !؟ فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك من أهم أموره وأولاها بالقصد، لو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحد ، وكانوا يسلمونك إليه . وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون إليه يعرفونه قولى ! » .

والرأى أن تكتب له كـتاباً تعلن فـيه ولاءك لنور الدين واسـتعدادك لـلوقوف بجانبه فنفذ صلاح الدين نصيـحة أبيه فصفح « نور الدين » عن « صلاح الدين » وترك عداءه .

وفاة نور الدين محمود

وفى سنة ١١٧٣ قام صـلاح الدين بغزو الكرك والشوبك وعندما اقـترب نور الدين من الكرك تخـوف صلاح الدين وعـاد إلى مصـر بحجة أن أبيـه نجم الدين أيوب مريض وقـد استخـلفه فى مصـر وأنه يخاف أن يموت فـتخـرج البلاد من أيديهم .

وأمام ذلك قرر نور الدين أن يتجه إلى مـصر لأخذها من صلاح الدين ولكنه توفى فى سنة ١١٧٤ بعد أن استطاع أن يحكم الحصار حول الصليبيين فى الشمال والشرق والجنوب وقد دفن فى قلعة دمشق بعد أن بنى أسـوار مدن الشام وقلاعها وبنى المـدارس الكثيرة للحنفيـة والشافعية وبنى الجامع النووى بالموصل ومع وفاة نور الدين انتـقل مركـز الجهـاد ضد الصليـبيـين من الشمـال إلى الجنوب وبذلك أصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الصليبيين الغاصبين .



مؤامرة على صلاح الدين

دبرت مؤامرة للقضاء على صلاح الدين وكان على رأس المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى وكان عمارة شديد التعصب للفاطميين وكان معه عبد الصمد الكاتب، والقاضى العوريسى داعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين وحاشية القصر واتفقوا على استدعاء بوليم الثانى ملك صقلية حتى يهاجم الاسكندرية بالأسطول فى نفس الوقت يدخل الصليبيون مصر من ناحية الشرق كما اتصل المتآمرون بالحشيشية الباطنية وقد اتفق المتآمرون على أن يقوم الصليبيون بالهجوم على مصر وفى نفس الوقت يشعلون المتآمرون الثورة فى القاهرة والفسطاط .

وكان من لطف الله بالمسلمين أن المتآمرين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية وقام القاضى باطلاع صلاح الدين على المؤامرة .

وفى نفس الوقت وصل الرسول الذى أرسله عمورى الأول إلى صلاح الدين محملاً بالهدايا وأمر صلاح الدين بعض النصارى وراقبوا الرسول فانكشف أمره لأنه كان على اتصال بالمتآمرين .

وأمر صلاح الدين بالقبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم ، وصل أسطول وليم النورمانى إلى الاسكندرية وأنزل قواته إلى الشاطىء ودمر بعض السفن المصرية ولكن المسلمين أحرقوا بعضاً من سفن وليم النورمانى ملك صقلية وجاء على وجه السرعة صلاح الدين فأغرق بعض سفنهم وأنزل بهم هزيمة قاسية واضطر وليم النورمانى إلى العودة بما تبقى من سفن .

غير أن ثورة أخرى قامت فى أسوان وقام بها أحد الفاطميين واسمه كنز الدولة وزحف هو ومن معه من الجند السودان إلى قوص ولكن العادل سيف الدين أخو صلاح الدين استطاع القضاء عليهم قضاء مبرماً .

وبذلك استطاع صلاح الدين أن ينتهى من مشاكله الداخلية فى مصر وأن يدعم نفوذه ولم يبق له سوى الصليبيين .

تقوية الوحدة الإسلامية

صبح صلاح الدين الوارث الحقيقي لدولة نور الدين ولسياسته فى توحيد المسلمين فى الشرق وعمل صلاح الدين على تدعيم الوحدة الإسلامية وفى نفس الوقت لم يهمل الصليبيين .

بعد وفاة نور الدين محمود فى سنة ١١٧٤ أدى ذلك إلى تقسيم الدولة الواسعة بين ورثته وأدى ذلك إلى تهديد الوحدة الإسلامية التى جاهد فى بنائها نور الدين محمود .

وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره وقت وفاة أبيه وتولى الملك الصالح حلب ودمشق أما ابن عم الملك الصالح ـ سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين مودود بن زنكى ـ أتابك الموصل لجأ إلى تفتيت الدولة واحتلال نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة .

تنازع الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين كل من الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم والأمير شمس الدين على بن دايه . وأشار القاضى كمال الدين الشهرزورى على الأمراء بالرجوع إلى صلاح الدين وأخذ رأيه وقال لهم « المصلحة أن يشاور « صلاح الدين » فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر » ولكن الأمراء خافوا من تدخل صلاح الدين فى شئون الشام .

ولكن صلاح الدين أرسل إلى الأمراء فى حقه فى الوصاية على الملك الصالح اسماعيل وأملاك نور الدين وقال لهم « لو لم يعجل عليه « نور الدين » الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى » .

ولكن عمورى الأول ملك بيت المقدس استغل ظروف وفاة نور الدين والخلافات التى حدثت وخرج ليستولى على بانياس وخرج إليه الأمير شمس

الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم على رأس جيش وعرض ابن المقدم مبلغ من المال على عموري الأول مقابل ترك بانياس ورأى صلاح الدين أن هذا الاتفاق موجه ضده فاستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم وأرسل يقبح لهم ما فعلوه ولكن زادت حدة الانقسامات بين الأمراء وسرعان ما ظهر طرف جديد فى النزاع وهو سعد الدين كمشتكين الخادم وهو أحد أمراء نور الدين وتمكن هذا الأمير من نقل الملك الصالح إسماعيل من دمشق إلى حلب وتمكن سعد الدين كمشتكين من القبض على شمس الدين بن الداية واعتقله وانفرد بتدبير أمور الملك الصالح إسماعيل . وأمام هذا عرض ابن المقدم ومعه الأمراء تسليم دمشق لسيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل ، ولكنه لم يظهر استعداداً وتراخى فى تسلم المدينة الأمر الذى دفع ابن المقدم والأمراء إلى دعوة صلاح الدين إلى تسلم دمشق . وخرج صلاح الدين على رأس سبعمائة فارس إلى بلاد الشام واستخلف على مصر أخاه الملك العادل وأراد بالخروج إلى الشام توحيد المسلمين والقضاء على الفرقة التى ظهرت بعد وفاة نور الدين محمود. وصل صلاح الدين إلى دمشق واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال وبات ليله فى دار أبيه «دار العقيقى » وفى اليوم التالى تسلم القلعة من ابن المقدام وعندما تسلم صلاح الدين القلعة قال : أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه » .

وأخذ صلاح الدين فى تقوية الجبهة الإسلامية حتى يتمكن بعد ذلك من القضاء على الصليبيين .

ولما استقر ملك صلاح الدين لدمشق ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين ابن أيوب وسار إلى مدينة حمص وحماة واستطاع ضم كل من حمص وحماة وهو فى كل الأحوال لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الصليبيين ولما ملك صلاح الدين حماة سار إلى

حلب فحاصرها فقاتله أهلها ، وركب الملك الصالح وهو صبي وعنده اثنا عشر سنة وجمع أهل حلب وقال لهم : « قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم . وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى يأخذ بلدى . . » واتفقوا على قتال صلاح الدين وأرادوا قتل صلاح الدين وأرسلوا جماعة من الإسماعيلية فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لأنه كان جارهم فى البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم ، فلما رآهم قال لهم : « ماالذى أقدمكم وفى رأيى شىء جئتم من أجله فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا .

وعندئذ أرسل أمراء حلب إلى أمير طرابلس الصليبى بأن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطروه إلى رفع الحصار عن حلب . وكان ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس يدرك أن وقع حلب فى يد صلاح الدين سوف يؤدى الوحدة الإسلامية فى وجه ، ورأى أن تظل حلب فى يد أمراء بيت نور الدين . ولذلك رأى مهاجمة حمص حتى يتراجع صلاح الدين عن حلب واضطر صلاح الدين إلى العودة لنجدة حمص التى كان قد استولى عليها .

وأما عودة صلاح الدين إلى حمص أمر حاكم حلب بإطلاق سراح أسرى الصليبيين وعلى رأسهم « أرناط » .

وكتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازى ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب أن يعبر إليه ليقصد صلاح الدين ويأخذ البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع عن ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه فى الملك لأنه

هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعود في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضاً زلفندار وجعله المدبر لأمره . وسار سيف الدين إلى سنجار فحاصرها في شهر رمضان وقاتلها وجدّ في القتال وامتنع عماد الدين بها وجدّ في حفظها والدفاع عنها فدام الحصار عليها ، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة .

ثم سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال : لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعودة إلى مصر . وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب .

فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل ، سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار فالتقوا في رمضان بالقرب من مدينة حماة بمكان يقال له «قرون حماة » وكان زلفندار جاهلاً بالحرب والقتال غير عالم بتدبيرها . واستطاع صلاح الدين الانتصار عليهم وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة في بلاده ودام محاصراً لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب ووصل إلى حماة ووصلت إليه خلع الخليفة ولما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى

« بعرين » وهى قريبة منها فحاصرها ، ونصب عليها المنجنيقات فلما ملكها عاد إلى حماة .

غير أن ابن عم الملك الصالح إسماعيل ـ سيف الدين غازى بن مودود ـ أتابك الموصل ـ أرسل يعتب أمراء حلب على الصلح مع صلاح الدين وحرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين وأرسل إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس ، يطلب منه التحالف والمساعدة ضد صلاح الدين كما أطلق سيف الدين غازى أسرى الصليبيين واستطاع سيف الدين غازى جمع القوات من أمراء الجزيرة وديار بكر فى محاولة لاخراج صلاح الدين من دمشق وبلغ عدد قوات سيف الدين غازى إلى عشرين ألف فارس إلا أن صلاح الدين استطاع هزيمتهم هزيمة ساحقة عند « تل السلطان » .

ثم سار صلاح الدين إلى « بزاعة » فحاصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها ، وجعل فيها من يحفظها ، وسار إلى مدينة منبج فحاصرها وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجر وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه فملك صلاح الدين المدينة وبقى القلعة وبها صاحبها فحاصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقابون إلى السور فنقبوها وأخذ صاحبها أسيراً ثم سار صلاح الدين إلى « إعزاز » وهى أحصن القلاع وأمنعها فحاصرها ثمانية وثلاثين يوماً فأذعن من بها ثم تسلمها .

وأراد الباطنية قتل صلاح الدين وتسلل أحد الباطنية إلى خيمة أحد الأمراء وكان موجوداً بها صلاح الدين وحاول قتل صلاح الدين وطعنه بسكين فى رأسه فجرحه وجاء أمير من أمرائه اسمه « يازكش » فأمسك السكين بكفه ، فجرحه الباطنى ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطنى وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضاً وثالث فقتل وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور وقصد صلاح الدين بلاد الإسماعيلية سنة ٥٧٢هـ وهم الذين أرادوا قتله فنهب بلدهم وخربها وأحرقها

وحاصر قلعة معيات وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم ، فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها وأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمى ، صاحب حماة وهو خال صلاح الدين ، يسأله أن يتدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له : إن لم تفعل قتلناك ، وجميع أهل صلاح الدين ، فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم ، فأجابه إلى ذلك ، وصالحهم ، ورحل عنهم.

وفى نفس الوقت أراد الصليبيون مهاجمة صلاح الدين فى أعقاب الانتصار فى تل السلطان سنة ١١٧٦ ولذلك أغار بلدوين الرابع ومعه ريموند الثالث على «البقاع » ولكن شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن وقد لقيهم عند عين الجر فأوقع بهم الهزيمة وبذلك نجح صلاح الدين فى مقاومة ثلاث قوى تحالفت ضده وهو يحاول تحقيق الوحدة الإسلامية والقوى الثلاث هى الزنكيين والباطنية والصليبيين .



عودة صلاح الدين إلى مصر

عاد صلاح الدين إلى مصر فى سنة ١١٧٦ ولكن صلاح الدين عمل على تقوية القاهرة وتحصينها ورأى صلاح الدين أن فى بلاد الشام وكل مدينة وبلدة لها قلعتها المحكمة القوية التى تصد وتصمد فى وجه الأعداء وكان من الطبيعى أن يعمل على إنشاء قلعة فى القاهرة تصبح مسركزاً للدفاع عن البلاد وشرع صلاح الدين فى بناء القلعة فور عودته فى أواخر سنة ١١٧٦ وقد اختار لها موقع ممتاز على جبل المقطم وهى تقع فى مكان استراتيجى بحيث تستطيع الاشراف على القاهرة ويمكنها صد أى عدوان داخلى أو خارجى وجعل صلاح الدين بداخلها البشر بحيث يكون هناك مورداً ثابتاً لـلمياه فى حالة دفع أى خطر وأحاط القلعة بخندق عميق وجعلها حصن حصين المنعة ولكن صلاح الدين رأى أن يحيط

القاهرة بسور عظيم استخدم فى بنائه الحجر الجيرى من منطقة الأهرامات وقد عهد إلى بهاء الدين قراقوش فى تلك الأعمال التحصينية والتى استمرت سنوات طويلة وكان آخرها بناء حائط كبير خارج القاهرة على طريق الاسكندرية الصحراوى وذلك بقصد حماية العاصمة من أى هجوم صليبى عن طريق الاسكندرية وأمام الاستعداد لأى هجوم قد يحدث على مصر سافر صلاح الدين إلى دمياط والاسكندرية سنة ١١٧٧ وتفقد حالة الأسطول وأمر باصلاح السفن .



صلاح الدين يهاجم مملكة بيت المقدس

اتجه صلاح الدين بعد أن أمر بالتحصينات على مصر والاشراف عليها إلى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس فى الوقت الذى كان جيش المملكة موجوداً فى شمال الشام وغادر صلاح الدين العريش بعد ذلك للهجوم على المراكز الصليبية على شاطىء فلسطين مثل الداروم وغزة ثم اتجه إلى عسقلان ولكن الملك بلدوين الرابع جمع الرجال وكل القادرين على حمل السلاح ودخل عسقلان ولكن صلاح الدين حاصره هو وقواته داخل المدينة وأخذ صلاح الدين يغير على المدن والمعاقل الصليبية حتى وصل إلى أرسوف ونابلس .

وفى ذلك الوقت اهتم المسلمون بجمع الغنائم وأصبحوا آمنين مطمئنين واستطاع بلدوين الرابع أن يخرج من عسقلان وجمع حاميات المدن الصليبية القريبة وداهموا قوات صلاح الدين وحلت الهزيمة بالمسلمين عند تل الصافية واستطاع صلاح الدين النجاة بصعوبة وعاد إلى مصر فى ديسمبر ١١٧٧ وأخذ بلدوين الرابع ملك بيت المقدس فى مطاردة من تبقى من القوات الإسلامية حتى عسقلان ثم عاد إلى بيت المقدس . وأدى هذا إلى الانتصار وأعادت ثقة الصليبيين

فى أنفسهم فـأخذوا يهاجمون المسلميـن فى شمال الشام فنهبوا القـرى وأحرقوها وخربوها وفى جنوب الشام شيدوا قلعة جديدة قرب بانياس بمكان تعرف بمخاضة الأحزان وتمتعت هذه القلعة بأهـمية كبرى لوقوعها على الـطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى .

وعـاد صـلاح الدين إلى الشـام من جـديد سنة ١١٧٨ وأدرك خـطـر هـذا الحصن « حصن بيت الأحزان » وطلب من الصليبـيين هدمه ولكنهم طلبوا نفقات بنائه فعرض صلاح الدين عليهم ستين ألف دينار على أن يهدموا الحصن ثم زادها إلى مائة ألف دينار ولكنهم رفضوا ذلك ـ وقد حدث أن اشـتبك الصليبيون بقيادة بلدوين الرابع وهمفرى صـاحب حصن بانياس مع المسلمين بقيـادة عز الدين فرخ شاه ابن أخى صـلاح الدين وخرج صلاح الدين لمسـاعدة ابن أخيه وانتـصر على الصليبيين وقتل همفرى وكان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وعاد صلاح الدين بالغنائم والأسرى .

وأرسل صلاح الدين ابن أخـيه تقى الدين عـمر إلى حمـاة خوفاً من اعـتداء بوهيمـوند الثالث أمير انطاكـية ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شـيركوه إلى حمص ليدفع عنها ضد ريموند الثالث أمير طرابلس .

وخرج بلدوين الرابع إلى قـتال صلاح الدين ودارت موقعـة قرب تل القاضى فى سهل مرج العيون وانتـصر صلاح الدين انتصـاراً حاسمـاً فى ١٠ يونية سنة ١١٧٩ .

وعمـد صلاح الدين إلى نقب حصن بيت الأحـزان فى سنة ١١٧٩ واستطاع أسر من فيه وأطلق أسرى المسلمين وهدم الحصن وكان الصلـيبيون قد اجتمعوا فى طبرية ليحموا الحصن ، فلما أتاهم الخبر فقدوا أعصابهم فتفرقوا إلى بلادهم .

وأخـذ صلاح الدين بعـد هدم حصن الأحـزان بالاغارة على صـور وصيـدا وبيروت واستطاع أسطول صلاح الدين أن يخرج من مصر ليهاجم عكا .

وأدت هذه الانتصارات المتلاحقة إلى طلب الملك بلدوين الرابع إلى عقد هدنة وتم الاتفاق على الهدنة فى مايو سنة ١١٨٠ وأدى ذلك إلى طلب ريموند الثالث أمير طرابلس عقد هدنة مع صلاح الدين .

وأسرع صلاح الدين إلى مصر ليستغل مدة الهدنة فى تحصين مصر فى يناير سنة ١١٨١ ولم يكد صلاح الدين يعلم بتحركات أرناط صاحب حصن الكرك فى البحر الأحمر والاعتداءات التى قامت بها السفن الصليبية على شواطىء مصر الشمالية حتى أمر باستكمال الإنشاءات والتحصينات الدفاعية وقد أمر بترميم سور دمياط وأمر بإصلاح السلاسل الحديدية التى كانت تسد مدخل النيل من ناحية دمياط وبلغ صلاح الدين فى الانفاق على تحصين دمياط حتى أنه أنفق على تحصين دمياط ألف ألف دينار وذلك ما يذكره المقريزى . وقد اهتم أيضاً بتحصين الإسكندرية وأمر صلاح الدين بكسر أربعمائة عامود كانت محيطة بعامود السوارى وإلقائها فى البحر لتسد الطريق فى وجه السفن التى تحاول الاغارة على الاسكندرية واهتم أكثر الاهتمام بالجيش وأنفق عليه الكثير من الأموال .



أرنـــــاط

رينو دى شاتيون « ريجنالد » الذى عرفه العرب باسم أرناط كان فارساً فرنسياً مغموراً وقع فى أسر المسلمين سنة ١١٦٠ وظل فى الأسر ستة عشر سنة وخرج من الأسر سنة ١١٧٧ وأحبته الأميرة كونستانس الوصية على أمارة انطاكية وتزوجته . وكان أرناط صاحب سياسة ذات طابع حماسى متطرف .

غير أن أرناط شرع فى الزحف إلى المدينة المنورة وأراد الاستيلاء على النواحى الشريفة ولكن فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق أسرع إلى غزو الأردن حتى يجعل أرناط يعود للدفاع عنها .

ولكن أرناط عندما علم بأن هناك قافلة عظيمة الأموال كثيرة الرجال غدر بهم أرناط وأخـذهم عن آجـرهم وغنم أمـوالهم ودوابهم وسـلاحهم وأودع الأسـرى السجون فأرسل إليه صلاح الدين يلومـه ، يقبح فعله وغدره ويأمره بأن يسرع برد كل ما استولى عليه من أموال وأسرى ولكن أرناط أعلن أنه لن يرد شيئاً من أسرى المسلمـين وأموالهـم . فنذر صلاح الدين نذراً أن يقتله إن ظفـر به . وفى نفس الوقت قذفت أمواج البحر ببضعة سفن مسيحية كانت فى طريقها إلى بيت المقدس فغرق منهم من غرق ووجـد الباقون وعددهم نحو ألف وستمائة وتسعين نفساً ـ أنفسهم على شاطىء دمياط وأعلن صلاح الدين أنه لن يطلق سراح أولئك الحجاج إلا إذا أطلق أرناط من عنده من أسرى المسلمين وأراد صلاح الدين الاطمئنان على الوحدة الإسلامية قبل القيام بحركة الجهاد شاملة ضد الصليبيين وقد حدثت بعض التطورات فى الموصل وحلب سنة ١١٨٠ ـ ١١٨١ حـيث أن سيف الديـن غازى الثانى أتابك الموصل توفى سنة ١١٨٠ ، ثم توفى الصالح نور الدين إسماعيل بن محمـود أتابك حلب فى سنة ١١٨١ . وقد أدى خوف أمـراء الموصل من صلاح الدين إلى حرمان أبناء سيف الدين غازى مـن ملك أبيهم واستدعى أمراء الموصل عز الدين مسـعود الأول أخا سيف الدين ـ لتولى أتابـكية الموصل وأوصى الصالح إسماعـيل وهو على فراش الموت أن يخلفه ابن عمـه الأمير عز الدين مسـعود فى حلب .

وبذلك نودى بعـز الدين مسـعود ملكاً على حلب سنـة ١١٨١ . وقد أدرك صلاح الدين أن هذه الأوضـاع من شأنها أن تكون عقـبة فى طريق حركة الجـهاد الشامـلة التى أراد القيـام بها ضد الصـليبيـين . حيث أن أمـراء حلب دخلوا فى مفـاوضات مع الصليبـيين وأرادوا التـحالف ضد صـلاح الدين لذلك أراد صلاح الدين توحيد القوى الإسلامية قبل القيام بحركة الجهاد الشاملة ضد الصليبيين واتجه صلاح الدين إلى حلب ومكث بهـا ثلاثة أيام ثم اتجه إلى الموصل فاسـتولى على

الرها وحران والرقة وسروج ونصيبين وأراد حصار الموصل ولكن عز الدين صاحب الموصل قد أعد عدته للحصار وحشد أعداداً ضخمة من العسكر وأراد صلاح الدين أن يستولى على الموصل عن طريق السياسية فعرض على عز الدين مسعود الصلح على أن يتركه يستولى على حلب دون تدخل منه ولكن عز الدين مسعود رفض وقال « هو أخي وله العهود والمواثيق ، ولا يسعني أن أنكثها » .

وكان قد وصل إلى سمع صلاح الدين أن ملك بيت المقدس استقبل سفارة من الموصل تعرض عليه الجزية السنوية وقدرها عشرون ألف دينار ، وتسليم بانياس وحبيس جلدك للصليبيين وإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين إذا نجح الصليبيون من طرد صلاح الدين من دمشق .

ولكن صلاح الدين ترك حصار الموصل ليبدأ في حصار حلب وكان عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب أقل شجاعة ودهاء من أخيه عز الدين مسعود .

وأرسل عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه ترك حلب مقابل إعطائه سنجار فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج وبذلك استطاع صلاح الدين الاستيلاء على حلب سنة ١١٨٣ كما استسلمت حماية حارم التابعة لحلب وبعد الاستيلاء على حلب أصبح صلاح الدين يسيطر على الجبهة الإسلامية والتى تمتد من جبال طوروس شمالاً حتى النوبة جنوباً وأدى ذلك إلى خوف أمارة أنطاكية وبادر أميرها باسترضاء صلاح الدين وأرسل إليه جماعة من أسرى المسلمين وبذلك استطاع صلاح الدين أن يجمع فى قبضته القوية كل من القاهرة ودمشق وحلب وأصبح لا يوجد عدو خطير يخشى تهديده إذا هو هاجم الصليبيين .



صلاح الدين يمهد
للجهاد الأكبر

غادر صلاح الدين مصر إلى الشام سنة ١١٨٢ وقد اتجه إلى أيلة على خليج العقبة وسمع أن الصليبيين قد جمعوا الحشود في حصن الكرك ليمنعوا دخوله إلى الشام وفي نفس الوقت اتجه صلاح الدين من أيلة إلى إقليم الشوبك . أثناء ذلك انتهز فرخشاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق خروج الجيوش الصليبية إلى الكرك وأغار على طبرية وعكا واستولى على الشقيف أرنوب وأسر الرجال وغنم الأموال ففرح المسلمون بفتح الشقيف أرنوب فرحاً عظيماً وأرسل فرخشاه البشارة إلى صلاح الدين ، فلقيه في الطريق وشرع الاثنان في مهاجمة حصن كوكب الذي يشرف على إقليم الغور والطريق المؤدى إلى الناصرة واشتد القتال بين الصليبيين وصلاح الدين وكان النصر للمسلمين .

ثم سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت وكان قد أمر الأسطول المصرى بالمجيء في البحر إليها وكان الأسطول مكون من ثلاثين سفينة و في نفس الوقت هجم صلاح الدين على بيروت من ناحية البر وبذلك تعرضت بيروت لحصار من البر والبحر ولكنها أظهرت عناداً شديداً ، وأمر بلدوين الرابع ملك بيت المقدس بإعداد الأسطول الصليبي في عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار أمام عناد المدينة أمر صلاح الدين بعودة الأسطول إلى مصر وكان الأسطول قد أسر من المدينة الكثير وغنم منها .

واتجه صلاح الدين إلى نهر الأردن فعبره واستولى على بيسان وكان المرض قد تمكن من بلدوين الرابع ملك بيت المقدس حتى أصبح عاجزاً عن الحركة وفوض الملك صهره جاى لوزجنان في تدبير أمور المملكة . اتجه جاى لوزجنان على رأس جيش المملكة لمواجهة المسلمين وعسكر عند الفولة وهي قرية قريبة من عين جالوت بفلسطين وعندما رأى الصليبيون ضخامة جيش صلاح الدين رحلوا عائدين إلى مركزهم في صفورية دون أن يجرأوا على مواجهة المسلمين وعاد صلاح الدين إلى دمشق بعد أن خرب حصون بيسان وكفر بلاوزرعين

صاحب حصن الكرك

أراد أرناط صاحب حصن الكرك أن يضرب الإسلام فى مقتل وذلك بغزو الحرمين وتدمير مكة والمدينة وكان أرناط قد استولى على أيلة على خليج العقبة وأمر أرناط ببناء عدة سفن حملت أجزاؤها على ظهور الجمال مفككة حتى خليج العقبة حيث ركبت واستطاع أرناط الاستيلاء على جزيرة القلعة « جزيرة فرعون » وجه بعض السفن إلى البحر الأحمر للاغارة على الموانىء المصرية على البحر الأحمر وقد أغار أرناط على الميناء الشهير عيذاب ونهب الصليبيون الكثير من السفن التجارية التى كانت وافدة من اليمن وجدة وعدن والهند وأحرقوا ستة عشر مركباً وأخذوا مركباً يأتى بالحجاج من جدة وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا قافلة كبيرة من الحجاج وانتقل الصليبيون إلى شاطىء الحجاز وأصبحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة وأغاروا على القوافل .

وأراد أرناط بذلك أن يضرب المسلمين في قبلتهم وأن يحتكر تجارة الشرق الأقصى والمحيط الهندى بعد السيطرة على أيلة وعدن وأدى ذلك إلى أن أمر صلاح الدين أخيه العادل فى مصر بأن يعد أسطولاً قوياً بقيادة حسام الدين لؤلؤ وقد بدأ الأسطول المصرى بحصار أيلة فحرق مراكب الصليبيين وأسر من فيها ثم اتجه إلى بقية السفن الصليبية وكانت أغلبها موجوداً على شاطىء الحوراء ودمرها وأطلق منها أسرى المسلمين .

وعاد حسام الدين لؤلؤ متولى الأسطول بديار مصر ومعه الأسرى الصليبيين إلى مصر وقد أمر صلاح الدين بقتل جميع الأسرى ليكونوا عبرة لكل من يحاول الاعتداء على الحرمين الشريفين وكان حصن الكرك عظيم الخطر بحيث يقطع الطريق على القوافل التى تقصد مصر لذلك خرج صلاح الدين من دمشق بحصار حصن الكرك وجاء إليه من مصر أخوه العادل لمساعدته سنة ١١٨٣ ولكن صلاح الدين لم يستطع أن ينال منه شىء لقوة تحصينه وكما أن الملك بلدوين الرابع خرج لنجدة حصن الكرك .

ولكن عاد صلاح الدين وخرج مرة أخرى سنة ١١٨٤ لمحاصرة حصن الكرك ومعه ابن أخيه المظفر تقى الدين عمر على رأس الجيش المصرى وأحضر المنجنيقات وآلات الحصار واشتد القتال وملك المسلمين الأمر ولكن جيش مملكة بيت المقدس أسرع لنجدة الكرك للمرة الثانية مما أفسدالأمر على صلاح الدين الذى اضطر إلى الانسحاب وسار إلى مدينة نابلس فأحرقها وخربها وقتل من بها وأسر الكثير ورحل عنها إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ومنح الأمان لأهل سبسطية اكراماً لمشهد زكريا عليه السلام ورحل إلى جينين فخربها وأحرق قلعة جينين .



انشقاق فى صفوف الصليبيين

ولكن سرعان ما بدأت تسوء أحوال مملكة بيت المقدس فى أواخر أيام ملكها بلدوين الرابع ولم يلبث الملك أن يبعد جاى لوزجنان عن الوصاية على المملكة كما عين بلدوين الخامس شريكاً له فى حكم المملكة ووريثاً للعرش الأمر الذى جعل جاى لوزجنان يعتصم فى يافا وعسقلان ويعلن ثورته على الملك بلدوين الرابع وأعلن بلدوين الرابع عزل جاى لوزجنان ثم اختيار ريموند الثالث وصياً على العرش وأعلن بلدوين الخامس ملكاً تحت وصاية ريموند الثالث أمير طرابلس وعقد ريموند الثالث هدنة مع صلاح الدين لمدة أربع سنوات سنة ١١٨٥ وبعد بضعة أشهر من إعلان بلدوين الخامس ملكاً توفى وأدى ذلك إلى الصراع على العرش بين الأمراء ولكن سرعان ما سيطر جاى لوزجنان وزوجته الأميرة سيبل على بيت المقدس والموانى وذلك بمساعدة هرقل بطريق بيت المقدس وأرناط صاحب حصن الكرك أما ريموند الثالث سرعان ما انفض عنه الأمراء ولكن

ريموند الثالث صاحب طرابلس وبوهيموند أمير أنطاكية أصرا على موقفهما العدائى من جاى لوزجنان .

وأرسل ريموند إلى صلاح الدين يطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلاً وأدى ذلك إلى تفرق شمل الصليبيين .



موقعة حطين

أراد أرناط صاحب الكرك أن يخرق الهدنة مع صلاح الدين فى ظروف صعبة كان يمر بها الصليبيون على أثر الانقسام الخطير بين أمرائهم واستغل أرناط موقع حصن الكرك فى الأردن فى الأعمال العدوانية على المسلمين وقوافلهم الذين كانوا ينزلون فى المناطق الصحراوية القريبة من حصن الكرك على الرغم من الهدنة بين صلاح الدين وأرناط إلا أن صاحب الكرك نجح فى نصب كمين للقافلة كانت تحمل الكثير من النفائس وثروة طائلة متجهة من القاهرة إلى دمشق سنة ١١٨٦ وقد سلب كل شىء ووضع الأسرى فى حصن الكرك ولكن صلاح الدين أرسل إلى الفارس اللص أرناط مقبحاً عمله وطلب منه أن يطلق الأسرى والأموال ولكن أرناط رفض ذلك وأرسل صلاح الدين إلى الملك جاى لوزجنان كى يأمر أرناط برد الأسرى والأموال ولكن أرناط صاحب حصن الكرك رفض طلب ملك بيت المقدس وهكذا تلاشى ما كان لملك بيت المقدس من نفوذ وهيبة فى أعقاب جلوس جاى لوزجنان على عرش بيت المقدس بحيث لم يستطع إجبار أرناط على رد الأسرى والأموال ولم يبق أمام صلاح الدين إلا خيار واحد وهو الحرب وقد اختار صاحب حصن الكرك أسوأ الأوقات بالنسبة للصليبيين وذلك نتيجة الانشقاق الذى

حدث داخل الصليبيين بعد عقد ريموند الثالث أمير طرابلس الهدنة مع صلاح الدين ، وكذلك عقد الهدنة أمير انطاكية بوهيموند الثالث مع صلاح الدين .

وتعتبر طرابلس وانطاكية أقوى إمارتين صليبيتين فى الشام وأخذ صلاح الدين يرتب الأمور ويعمل على تعبئة القوى الإسلامية استعداداً لمعركة الجهاد الكبرى واتجه صلاح الدين على رأس جيش كبير فى منتصف مارس سنة ١١٨٧ نحو الجنوب حتى وصل إلى رأس الماء حيث ترك الأفضل ابنه واتجه صلاح الدين إلى بصرى لحماية قافلة الحجاج الآتية من الحرمين خوفاً عليهم من غدر أرناط وكان فى هذه القافلة إحدى أخوات صلاح الدين وابنها وبعد أن فرغ من تأمين القافلة وسلامتها اتجه إلى الكرك فى جيش من اثنى عشر ألف فارس وأراد أرناط قطع الطريق على القوات الآتية من مصر وصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين ولكن صلاح الدين تقدم إلى الأمام والتقى بالقوات الآتية من مصر ووجد أرناط نفسه محصوراً فى قلعة الكرك وفى نفس الوقت كان الأفضل لا يزال عند رأس الماء يتولى أمر القوات الإسلامية التى أخذت تتوافد عليه من مصر وأراد صلاح الدين أن يتفرغ إلى أرناط وأرسل إلى رجاله فى حلب يأمرهم بعقد هدنة مع بوهيموند الثالث أمير أنطاكية وفى نفس الوقت أدى ذلك الخلاف بين جاى لوزجنان وكل من أمير طرابلس وأمير أنطاكية إلى الصدام المسلح حيث جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه الموجودة فى الناصرة لمهاجمة طبرية التى كان يمتلكها أمير طرابلس ولكن أمراء الصليبيين حثوا جاى لوزجنان على توجيه قواته إلى صلاح الدين والمسلمين وإرسال مبعوث إلى ريموند أمير طرابلس للوساطة بين الطرفين وأرسل صلاح الدين قوة بقيادة مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب حران والرها وقايماز النجسمى ودلدرم الياقوتى وهما من أكابر الأمراء فساروا ليلاً حتى تصدى لهم مقدم الداوية قرب صفورية وهناك دارت معركة رهيبة سقط فيها معظم الصليبيين وكان ضمن القتلى مقدم الاسبتارية ومعه فرسان الصليبيين المشهورين وعادوا المسلمون سالمين غانمين .

ـكن الصليبيين أرادوا تنظيم أنفسهم ودخل أمير طرابلس فى طاعة الملك جاء لوزجنان ورأى أن من الحكمة أن يسر لمحاربة المسلمين بدلاً من التفرق ولكن صلاح الدين زحف إلى طبرية وأحرق المدينة فيما عدا القلعة التى لم يستطع المسلمون الاستيلاء عليها وكانت بها أميرة طرابلس زوجة ريموند الثالث .

وكان الصليبيون قد اجتمعوا عند صفورية ولكن صلاح الدين صاحب المهارة العسكرية أراد أن يجبرهم على ترك صفورية ولذلك أمر صلاح الدين بمهاجمة طبرية لكى يدفع الصليبيين إلى ترك مراكزهم عند صفورية وأن يجبرهم على الزحف إليه ورأى ريموند الثالث خطورة الأمر لصعوبة الطريق وقلة الماء على الرغم من وجود زوجته فى قلعة طبرية وقال « لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقنا وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهاليهم فيضطر إلى تركها . فقال أرناط صاحب الكرك : « قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا وأما قولك أنهك كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون ، فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم .

وهكذا بدأ الجيش الصليبى فى التحرك فى شهر يولية سنة ١١٨٧ وكانت الظروف سيئة حيث سار الجنود مكرهين إضافة إلى ذلك حرارة الجو القاسية وصعوبة الطريق وطوله أيضاً . ونفس الوقت كان المسلمون ينعمون بالماء ينتظرون قرب طبرية مع قائدهم صلاح الدين صاحب الدهاء العسكرى وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تقدم إلى قرية حطين وعندما وصل الصليبيون سطح جبل طبرية وهى منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلاثمائة متر

كانوا فى شـدة العطش والتعب وأمـر الملك جاى لوزجنان أن يقـضى الصليبـيون ليلتهم فوق الهضبة .

وحاول بعض الصليـبيين الوصول إلى الماء ولكن المسلمـين حالوا بينهم وبين الماء وكان المسلمون قـد أشعلوا النار فى الأعشاب التى كـانت كثيفة على الهـضبة فاحترقت وحملت الريح حر النار والدخان إليهم فاجتمع العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال .

وكان صـلاح الدين قد استغل الليل ليـحيط بهم وعندما أشـرقت شمس يوم السبت ٤ يولية سنة ١١٨٧ وبدأ المسلمون الهجـوم على الصليبيين الذين كانوا فى ظروف غاية فى الصعوبة وشدد المسلمون على هجـماتهم ضد الأعداء والصليبيين تعـذر عليـهم الوقف فى وجـه صـلاح الدين ورجـاله على أثر العطش والتـعب والارهاق ولكن ريموند أمير طرابلس فر هارباً تجاه صور أما ما تبقى من الصليبيين فقـد آووا إلى جبل حطين ليـعصمـهم من البلاء فـأحاط المسلمون بـالجبل وظلوا يطاردونهم من أسفل والصليبـيون يتراجعون وبقى الملك على التل فى مـقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان .

وكثر الأسـرى والقتل فيـهم فمن كان يرى القتلى لا يظن أنهـم أسروا واحداً ومن يرى الأسـرى لا يظن أنهم قـتلوا أحـداً وكـان ضمن الأسـرى الملك جـاى لوزجنان وأخوه وأرناط صاحب حـصن الكرك وصاحب جبيل وابن هنفـرى مقدم الداوية جـيرار دى ريد فـورت وأسـروا أيضاً جـماعـة من الداوية وجـماعـة من الإسبتارية .

ولما فـرغ المسلمون منهـم نزل صلاح الدين فى خـيمـتـه وأحضـر ملك بيت المقدس عنده وأرناط صـاحب الكرك وأجلس الملك إلى جانبـه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلجاً ، فشـرب وأعطى ما تبقى لأرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمان ، ثم التفت إلى أرناط وعدد ذنوبه وعدد مرات الغدر وقال له : كم تحلف وتنكث فرد أرناط : قد جرت بذلك عادة الملوك وعندئذ أمـسك صلاح الدين بسيفـه وأطاح برأس أرناط وقال :

كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً ، وارتعدت فرائص الملك جاى لوزجنان ولكن صلاح الدين هدأ من روعه وقال له « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى » وكان صاحب طرابلس قد فر من المعركة ووصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً على ما جرى للصليبيين وأمر صلاح الدين بحبس الأمراء فى دمشق وبيع عامة الفرسان والجند فى أسواق الرقيق .

استرداد بيت المقدس

أدت معركة حطين إلى نقص فى عدد فرسان الصليبيين بعد أن سقطوا بين أسير وقتيل وأيضاً أسر جاى لوزجنان ملك بيت المقدس وضياع هيبته .

وشرع صلاح الدين فى فتح البلاد والمدن الصليبية وفى اليوم التالى من معركة حطين يوم الأحد عاد إلى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك وأدى اعتدال صلاح الدين والبعد عن التطرف فى معاملة الأسرى وتمسكه بالتسامح والرحمة إلى الاستيلاء على الكثير من المدن الصليبية سواء الساحلية أو الداخلية . ولما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكا يوم الأربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ وطلب حاكم عكا ـ جوسلين الثالث دى كورتنارى الأمان على أنفسهم وأموالهم فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وممتلكاتهم وقد غنم المسلمون من عكا غنائم كثيرة من الذهب والجواهر والسلاح والكثير من أنواع الأمتعة لأن عكا كانت مقصد التجار من أقصى البلاد وأدناها .

وأراد صلاح الدين الاستيلاء على عكا وأن يحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التى تربطهم بالغرب الأوربى وهى أحد مظاهر دهائه العسكرى بحيث

يصبح الصليبيون محاصرون داخل بلاد الشام وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وترك مدينة عكا لابنه الأفضل ، وقد أدّوا صلاة الجمعة فى مسجد كان للمسلمين قديماً .

ولما هزم صلاح الدين الصليبيين أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى الصليبيين من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر فنازل المدن الساحلية فى فلسطين ، فاستولى على حصن مجدل يابا بين يافا ونابلس ثم سار إلى مدينة يافا وهى على الساحل فحاصرها وملكها عنوة . . وجه صلاح الدين وهو بعكا عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة فاستولوا عليها وأسروا رجالها وكذلك وجه صلاح الدين ابن أخته حسام الدين عمر ابن لاجين فى عسكر إلى نابلس فاستولى على سبسطية ووصل إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها .

وكان صلاح الدين قد بعث تقى الدين إلى تبنين فرأى تقى الدين أن حصارها لا يتم إلا بوصول عمه صلاح الدين إليه فأرسل إليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول إليه وكانت تبنين من القلاع المنيعة على الجبل فلما حاصرها صلاح الدين ضاق عليهم الأمر واشتد الحصار أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل وسمح صلاح الدين لحاميتها بالخروج من القلعة فى أمان .

ولما فرغ صلاح الدين من تبنين رحل إلى صيدا فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه تركها وتسلمها صلاح الدين بساعة وصوله . أما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فتحصن الصليبيون وراء أسوارها وحاولوا الدفاع عنها وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم صلاح الدين على أنفسهم وأموالهم سنة ١١٨٧ ثم اتجه إلى جبيل وكان صاحبها عرض تسليم جبيل على نائب صلاح الدين بدمشق بشرط إطلاق سراحه لأنه قد أسر فى طبرية فعرف صلاح الدين فأحضره مقيداً حيث أمر الحامية بالتسليم ، فاستولى عليها صلاح الدين .

لما فرغ صلاح الدين من بيروت وجبيل اختار أن يستولى على عسقلان واجتمع مع أخيه العادل ومن معه من عساكر مصر لما رأى إصرار حامية عسقلان على المقاومة وقوة تحصين عسقلان أحضر ملك الصليبيين جاى لوزجنان ومقدم الداوية دى مونتفورت من دمشق وقال لهما : إن سلمتما البلاد إلىّ فلكما الأمان ولكن أهل عسقلان رفضوا التسليم وردوا عليهما أقبح رد واستمر أهل عسقلان فى المقاومة حتى طلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أرواحهم وأموالهم .

ولم يبق أمام صلاح الدين إلا أمر بيت المقدس الذى عرض على أهل بيت المقدس تسليمه مقابل الأمان على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ولكن أهل بيت المقدس رفضوا وعلى رأسهم الأمير باليان الثانى دى ابلين « ابن بارزان » ورأوا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس .

وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتل لأن المدينة فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد إلا موضع جهة الشمال عند باب عمرو واستطاع المسلمون الوصول إلى سور المدينة ونقبوه ورأى الصليبيون شدة قتال المسلمين وإنهم أشرفوا على الهلاك فاتفقوا على طلب الأمان ولكن صلاح الدين امتنع عن إجابتهم وقال : « لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها » ولكن باليان الثانى طلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره ، فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب فى الأمان ، وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه ، فلما يأس من ذلك قال باليان دى ابلين لصلاح الدين « أيها السلطان أعلم إننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا

الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من الموضع ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، لا نترك دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً » .

فاستشار صلاح الدين أصحابه ، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان مقابل عشرة دنانير للرجل يستوى فيه الغني والفقير وخمسة دنانير للمرأة وديناريين للطفل فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه صار مملوكاً . وأطلق باليان دى ايلين ثمانية عشر ألف رجل من الفقراء دفع عنهم ثلاثين ألف دينار وباع الصليبيون أمتعتهم بأرخص الأثمان وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وهو ذكرى ليلة المعراج التى أسرى الله فيها ليلاً نبيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وقد جعل صلاح الدين على كل باب من أبواب المدينة أميناً من الأمراء ليجمعوا من الخارجين منه المال المقدر عليهم وكانت زوجة الملك جاى لوزجنان فى بيت المقدس فسمح لها صلاح الدين بالذهاب إلى زوجها الأسير فى نابلس وكما طلبت أرملة أرناط صاحب الكرك من صلاح الدين إطلاق سراح ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين : إن سلمت الكرك أطلقته ، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون فلم يطلق صلاح الدين ولدها إلا بعد أن استولى العادل على الكرك سنة ١١٨٨ وهذا السلوك الطيب من جانب صلاح الدين الذى أمر أن يخرج كل الصليبيين ومعهم أموالهم ولم يتعرض لأحد حتى أن هرقل بطرق بيت المقدس غادر المدينة ومعه الكثير من الذهب والفضة وخلفه العربات تحمل الكثير من النفائس فقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وهذا يختلف عن سلوك الصليبيين عندما استولوا على المدينة سنة ١٠٩٩ فذبحوا الكثير من المسلمين حتى يقول ابن العبرى وهو مؤرخ مسيحى « قتل بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً » .

وأمر صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى وأمر أن يعمل له منبر فقيل له أن نور الدين محمود كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه فأمر صلاح الدين بإحضاره .

فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة ولما كانت الجمعة ٩ اكتوبر (رابع شعبان) صلى المسلمون الجمعة ومنهم صلاح الدين فى قبة الصخرة وأمر بعمارة المسجد الأقصى باستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فأحضروا الرخام وشرعوا فى عمارته وأمر بنقل المصاحف إليه ورتب القراء .

أراد صلاح الدين بعد ذلك إخضاع كل من صور وطرابلس وأنطاكية إضافة إلى القلاع الداخلية التابعة لهم ولكن صلاح الدين رأى أن أمر صور قد يطول فرحل عنها ويقول ابن الأثير « فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملّوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين ، فقد جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك ـ كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور » .

ولما فتح صلاح الدين تبنين أقنع من بهونين من تسليمها وهى من أحصن القلاع وأمنعها واستطاع الاستيلاء على قلعة هونين وفى نفس الوقت أرسل صلاح الدين فرقة من العسكر إلى قلعة صفد فحاصرها وهى مطلة على مدينة طبرية وكان حصن صفد للداوية وحصن كوكب للاسبتارية وهما قريبان من حطين فاستسلمت صفد فى أواخر سنة ١١٨٨ وكوكب فى أوائل سنة ١١٨٩ .

ثم استولى على بانياس وبعدها جبلة فى يوليو سنة ١١٨٨ ثم سار إلى

اللاذقية فترك الصليبيون المدينة لعجزهم عن حفظها ثم رحل صلاح الدين عن اللاذقية وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة فقاوم الحصن مقاومة عنيفة ثم استسلم فى النهاية ثم سقطت القلاع التابعة لحصن صهيون مثل حصن بلاطنس وحصن العيد وحصن الجماهرتين ثم سار صلاح الديسن إلى قلعة بكاس وملك القلعة بغير قتال وتقدم إلى قلعة الشغر وتمكن من قلعة الشغر ثم سار ابنه الظاهر إلى سرمينية فحاصرها وسقطت فى يده ، ثم رحل صلاح الدين من قلعة الشغر إلى قلعة برزية واستولى عليها ولما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه وسار إلى قلعة درب ساك وهى من معاقل الداوية الحصينة واستطاع صلاح فتح القلعة فى التاسع عشر من رجب سنة ٥٨٤هـ ثم اتجه صلاح الدين إلى قلعة بغراس فحاصرها فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين على أموالهم وأرواحهم وتوجه صلاح الدين إلى أنطاكية بعد فتح بغراس وحاصرها فخاف البيمند صاحب أنطاكية وأرسل يطلب الهدنة فعقدت هدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر وكانت الهدنة حتى يستريح الجنود بعض الشيء الأمر الذى افتقده منذ حطين .

فى تلك الأثناء كان العسكر قد حصروا الكرك مدة طويلة حتى نفذت ذخائر الصليبيين وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، فراسلوا الملك العادل أخو صلاح الدين يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وتسلم الملك العادل أيضاً حصن الشوبك . وبعد ذلك اتجه إلى حصن الشقيف الذى سلمه لصلاح الدين رينو صاحب صيدا وذلك بشرط أن يعطى صلاح الدين له موضعاً يسكنه فى دمشق .

أدى كرم وتسامح صلاح الدين مع الصليبيين والاعتدال والبعد عن التطرف والعنف معهم ومنح الكثير من أهالى المدن الصليبية الحرية وأدى إلى تجمع هؤلاء فى صور التى صار أمرها عسيراً على صلاح الدين . إضافة إلى حصانة صور الطبيعية .

كونراد دى مونتفرات

كان كونراد دى مونتفرات « المركيس » قد وصل إلى عكا سنة ١١٨٣ قادماً من غرب أوربا وفوجىء عند رأى المسلمين يحكمون عكا فرحب أهل صور بالأمير كونراد دى مونتفرات والذى أخذ يدعم تحصينات صور ، وصل كونراد دى مونتفرات فى ذلك الوقت وبعث فى الصليبيين الأمل من جديد بعد أن كانوا يفتقدون إلى قائد عظيم ذو رأى وبأس شديد وهكذا استعصى أمر صور على صلاح الدين بعد أن أعلن أمراء الصليبيين وفرسانهم ولائهم « كونراد دى مونتفرات » وأراد صلاح الدين أن يرغم المركيس كما يطلق عليه العرب على تسليم المدينة مقابل إطلاق سراح والد كونراد الذى كان أسيراً لدى صلاح الدين ولكن كونراد دى مونتفرات رفض هذا العرض وقال أنه يفضل أن يذبح هو وأبوه عن أن يسلم المدينة لصلاح الدين .

وأخذ المركيس فى بناء سور المدينة وحفر خندق حول المدينة تجرى فيه مياه البحر فأصبحت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء وبذلك زاد من تحصين المدينة وهى التى يضرب بها المثل فى الحصانة .

وقد اتجه صلاح الدين إلى صور ومعه ولداه الأفضل والظاهر وأخوه العادل وابن أخيه تقى الدين عمر ولكن على الرغم من كثرة جيش صلاح الدين وإحضاره عشر سفن من الأسطول المصرى إلا أنه فشل فى حصار صور بعد إجراءات كونراد دى مونتفرات الدفاعية التى جعلت صور حصناً منيعاً واضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن المدينة ويعتبر هذا أول فشل يتعرض له صلاح الدين بعد نصر موقعة حطين .

الحملة الصليبية الثالثة

أرسل كونراد دى مونتفرات إلى الغرب يطلب النجدة من الملوك والأمراء وكان أول من استجاب لنجدة بيت المقدس ملك صقلية الذى أرسل أسطول يحمل الفرسان إلى طرابلس ولكن فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا خرج سنة ١١٨٩ على رأس جيش كبير من مائة ألف مقاتل فى اتجاه الشام عن طريق البر وأخذ المسلمون فى بلاد الشام يتابعون الموقف فى قلق بالغ بعد أن عرفوا أن إمبراطور ألمانيا سار إلى الشام على رأس جيش مكون من مائة ألف مقاتل وأرسل صلاح الدين الجواسيس لمعرفة أخبار تقدم الألمان وأسرع صلاح الدين إلى إخلاء وهدم بعض المراكز خوفاً من استخدامها ضده من قبل الصليبيين لذلك هدم سور طبرية، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية وأسوار صيدا وجبيل .

ولكن الله تعالى لطف بالمسلمين عندما غرق فردريك بربروسا أثناء عبوره نهر صغير فى قيليقية فتبدد جيشه الكبير وتفرق مما جعل المسلمين يهللون على أثر غرق فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا .

ولكن خروج فردريك بربروسا على رأس الحملة الألمانية لم يكن إلا جزءاً من الحملة الصليبية الثالثة أما الجزأين الهامان فى الحملة فكان بزعامة ملك فرنسا وبزعامة ملك انجلترا وقد اتجه الملكان قاصدين الشرق سنة ١١٩٠ وكان صلاح الدين قد أطلق سراح الملك جاى لوزجنان وأطلق معه مجموعة من الأمراء وكذلك والد كونراد دى مونتفرات وكانت صفة التسامح مع الصليبيين قد عانى منها صلاح الدين كثيراً ولكنه كان من الصعب عليه أن يتخلى عن صفاته التى خلدت فى التاريخ الغربى والعربى على السواء وعلى الجانب الآخر كثيراً ما عانى صلاح الدين من الغدر والخيانة ونكث العهود التى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من سياسة الصليبيين تجاه صلاح الدين الرجل الذى يتحلى بالسماحة وكرم الأخلاق وكان جاى لوزجنان وزوجته قد اتجهوا إلى صور ولكن كونراد دى مونتفرات رفض أن يسمح لملك بيت المقدس جاى لوزجنان بدخول المدينة .

ولكن جاى لوزجنان اتجه إلى غزو عكا بعد أن جمع بعض الفرسان وكان زحف الصليبيين إلى عكا فى ظل ظروف قاسية ولكن صلاح الدين كان محاصراً قلعة الشقيف أرنون وكان مشغولاً بها .

وأرسل صلاح الدين بعض القوات لوقف تقدم جيش الصليبيين وأراد صلاح الدين أن يقضى على الصليبيين عند مضيق بين صور وعكا ولكن أصحابه عارضوه وقالوا الأفضل مهاجمة الصليبيين أمام عكا حتى يقع الصليبيون بين جيوش صلاح الدين وبين حامية عكا من المسلمين ونزل صلاح الدين على رأى أصحابه وكان فى استطاعة صلاح الدين القضاء على هؤلاء الصليبيين بقيادة جاى لوزجنان ولكن وصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة من الغرب الأوربى أمدهم بقوة كبيرة أمام عكا وفى نفس الوقت وصل كونراد دى مونتفرات على رأس جيش قادماً من صور وبذلك أصبح صلاح الدين فى موقف شديد الحساسية واضطر إلى الهجوم على الصليبيين أمام عكا واستطاع أن يلحق بجيوش العدو خسائر كبيرة ولكن حدث أن انتشر وباء على أثر كثرة القتلى من الجانبين ولكن الأمراء أشاروا على صلاح الدين الابتعاد عن عكا قليلاً وعند ذلك شرع الصليبيون فى حفر خندق حول عكا وتمكن الصليبيون من حصار عكا وبداخلها المسلمين .

ولكن الأسطول المصرى بقيادة حسام الدين لؤلؤ نجح فى إمداد المسلمين المحاصرين بعكا بعض المؤن وجماعة من الأمراء وجنود ولكن ظل التفوق حليفاً للصليبيين من ناحية التفوق البحرى وكذلك كثرة العدد واستمر الحصار ونفذ التموين وانتشر الوباء وتعرض المسلمون للمجاعة داخل عكا وقد نجحت ثلاثة سفن مصرية ضخمة فى تنزيل حمولتها إلى عكا ليلاً حتى تنقذ المسلمين من المجاعة كما نجح صلاح الدين فى إنزال قوات جديدة إلى عكا وسحب القوات السابقة ولكن وصول فيليب أوغسطس ملك فرنسا إلى الشام الذى قرر عدم انتظار ريتشارد ملك انجلترا وإنما بدأ فى مهاجمة عكا وأخذ الصليبيون يعملون آلات

الحصار فى أسوار المدينة كما عملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة وزاد الأمر خطورة بوصول ريتشارد ملك انجلترا إلى عكا ، لكن حامية عكا الإسلامية أظهرت بطولة وشجاعة بقيادة قراقوش وظلت صامدة أمام هؤلاء القواد العظام وقام صلاح الدين بعدة هجمات على الصليبيين ليصرفهم عن عكا ولكن ماذا تفعل الحامية الإسلامية بعكا أمام جيوش فرنسا وانجلترا ، أدرك صلاح الدين أن المعركة ليست عكا فقط ولكن الشام بأكمله وانتهى الأمر بعد عامين من الحصار إلى الاتفاق على السماح بخروج حامية عكا مقابل فدية مائتى ألف دينار وإطلاق سراح ألفين وخمسمائة من الأسرى الصليبيين .



صلاح الدين وريتشارد

بعد أن استولى الصليبيون على عكا اعتذر ملك فرنسا فيليب أوغسطس عن البقاء بالشام بسبب مرضه وغادر الشام فى أغسطس سنة ١١٩١ وبذلك أصبح المسئول عن الصليبيين هو ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

ولكن الفارق واضح بين صلاح الدين وريتشارد ، فبينما نجد صلاح الدين يتسم بالتسامح والكرم والمروءة والعفو والوفاء بالعهد . ولكن ريتشارد قلب الأسد اختلف عن صلاح الدين فقتل ريتشارد حامية عكا الإسلامية بعد الاتفاق على منحهم الأمان وكانوا حوالى ثلاثة آلاف مسلم وعلى الرغم من ذلك رفض صلاح الدين أن يقتل الأسرى الصليبيين الذين كانوا فى حوزة المسلمين ورفض صلاح الدين المفاوضات حول بيت المقدس وزحف ريتشارد إلى حيفا واستولى عليها بعد أن تركتها حاميتها الإسلامية ثم زحفوا إلى قيسارية واستولوا عليها فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ وفى نفس الوقت كان المسلمون ينقضون على مؤخرة الجيش الصليبى ولم تنقطع الاشتباكات بين الطرفين طوال زحف الصليبيين واتجه ريتشارد

إلى أرسوف ودارت موقعة أرسوف بين صلاح الدين وريتشارد فى ٧ سبتمبر سنة ١١٩١ وكان النصر فى البداية مع المسلمين الذين أوشكوا أن يقضوا على الصليبيين ولكن ريتشارد أعاد تنظيم قواته وتحولت المعركة إلى صالح الصليبيين وأدى انتصار الصليبيين فى أرسوف إلى شعور الصليبيين بالثقة فى أنفسهم .

أراد صلاح الدين بعد هزيمة أرسوف أن يدفع عن عسقلان ولكن أمراؤه رفضوا ذلك وقالوا له « إن أردت حفظها فأدخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا !! » .

ولكن صلاح الدين خاف أن يستغل الصليبيون عسقلان أو أن يترك شيء يستفيد منه الصليبيون .

لذلك أمر بتدمير عسقلان على وجه السرعة وإحراقها وهدم أبراجها بحيث لم يترك شيئاً يستفيد منه الصليبيون واتجه إلى بيت المقدس فى نهاية سنة ١١٩١ .

بيت المقدس

اهتم ريتشارد بالاستيلاء على يافا وتعميرها وأرسل كونراد دى مونتفرات إلى صلاح الدين يطلب مصالحته ويتعهد بمحالفته ضد الصليبيين على أن يأخذ صيدا وبيروت وكان ريتشارد يؤيد جاى لوزجنان ويعطف عليه ضد كونراد دى مونتفرات ولكن صلاح الدين طلب من كونراد دى مونتفرات أن يسلمه أسرى المسلمين الموجودين فى صور وعكا وعندئذ يسلمه صلاح الدين صيدا وبيروت ولكن ريتشارد أحس بهذا الاتفاق واستطاع استرجاع كونراد دى مونتفرات إليه .

وتحرك ريتشارد من يافا إلى الرملة واللد ولكنه وجدهما أنقاض على أثر تدمير المدنيين على يد صلاح الدين ونصب الصليبيون معسكرهم فى الرملة وكان صلاح الدين قد عسكر فى النطرون وعندما علم صلاح الدين باتجاه ريتشارد نحو النطرون أمر بهدم النطرون واتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس لتقويته فقسم سور بيت المقدس على أولاده وأخيه وجنوده وكان صلاح الدين يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به العسكر .

واضطر ريتشارد إلى العودة إلى الرملة وإجراء بعض المفاوضات مع الملك العادل الذى أناب عن صلاح الدين ولكن المفاوضات تعثرت بسبب إصرار الصليبيين على ارجاع مملكة بيت المقدس إلى ما كانت عليه قبل حطين ولكن صلاح الدين رد على ريتشارد وقال له « القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ما هو عندكم فإنه مسرى نبينا ومحشر أمتنا ، فلا تتصور أن نتنازل عنه ، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين » .

واقترح ريتشارد على الملك العادل أن يتزوج من الأميرة جوانا أرملة ملك صقلية وأخت ريتشارد وأن يشترك الزوجان فى حكم بيت المقدس ولكن لم يتم هذا الزواج بسبب رفض الأميرة جوانا بأن تتزوج من مسلم .

وظهر الخلاف من جديد بين كونراد دى مونتفرات وجاى لوزجنان ورأى ريتشارد أن يعقد اجتماعاً عاماً للأمراء والفرسان حتى يتم اختيار ملك مملكة بيت المقدس .

واستقر الأمر على اختيار كونراد لعرش المملكة ولكن كونراد قتل على يد أحد الباطنية وتم اختيار هنرى دى شامبنى لعرش المملكة ولكن وصلت إلى ريتشارد أخبار من الغرب تؤكد على قيام أخيه حنا بثورة ضده .

ولكن حدث اختلاف بين الصليبيين حول الزحف إلى بيت المقدس ومحاصرتها حيث أيد الصليبيون الفرنسيون فكرة مهاجمة القدس بينما عارض ريتشارد والإنجليز ذلك بسبب عدم وجود مياه خارج المدينة وقال ريتشارد « هذه المدينة لا يمكن حصارها مهما كان صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعة ، لأننا إن نزلنا من الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محاصرة فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه » وأرسل ريتشارد فى طلب الصلح .

★★★

صلح الرملة

أراد ريتشارد أن يسرع إلى العودة إلى بلاده بعد قيام أخيه بثورة ضده ، كما أن صلاح الدين أراد أن يتفرغ إلى شئون دولته ولذلك دخل الجانبان فى مفاوضات .

واقترح ريتشارد على صلاح الدين أن يحكم هنرى دى شامبنى مملكة بيت المقدس ولكن تحت حماية المسلمين ويكون هنرى وجيشه تحت إمرة صلاح الدين وفى طاعته وطلب ريتشارد من صلاح الدين ضمان حرية الحج والعبادة للصليبيين وحماية الأماكن المقدسة وبخاصة كنيسة القيامة وأن يكون للصليبيين ملك البلاد الساحلية من صور إلى يافا ولكن بشرط أن تكون عسقلان وما وراءها خراباً لا للمسلمين ولا للصليبيين ولكن رفض ريتشارد تسليم عسقلان وتخريبها .

وأسرع صلاح الدين بالهجوم على يافا وحاصرها وأخذها عنوة ولكن ريتشارد أسرع إلى إنقاذ يافا وتمكن من مهاجمة المسلمين وإنزال الهزيمة بهم فى أغسطس سنة ١١٩٢ وكانت مع ريتشارد قوة صغيرة وأراد صلاح الدين أن يستغل ذلك وأن يقوم بهجوم ولكنه لم يجد تأييد من رجاله .

ولكن ريتشارد مرض فى يافا وأخذ صلاح الدين يقدم كل معونة فى مرضه وقد وصفوا الأطباء لريتشارد الفاكهة والثلج فأخذت رسله تتردد على صلاح الدين فى طلب الفاكهة والثلج وكان سلوك صلاح الدين له أثره الطيب فى نفس ريتشارد وأدرك صلاح الدين أن ريتشارد مضطر إلى العودة إلى بلاده واشتد المرض على ريتشارد وأصر على الاتفاق مع صلاح الدين قبل مغادرة الشام .

ولكن وجود مشكلة عسقلان وغزة والداروم والتى أراد صلاح الدين استردادها والتى رفضها سابقاً ريتشارد ولكن ريتشارد اضطر للتنازل عن بعض شروطه وعقد صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ ونص الصلح على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا ، أما عسقلان فتكون للمسلمين

وتكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين والأماكن المقدسة فى أيدى المسلمين على أن يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس وأن تكون مدة الصلح ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ، وقع على الصلح هنرى دى شامبنى وبالليان الثانى دى ابلين نيابة عن ريتشارد والملك الأفضل والملك الظاهر ابنا صلاح الدين والملك العادل نيابة عن صلاح الدين .

وعادت الحياة الطبيعية وأقبل الحجاج المسيحيون إلى بيت المقدس وبالغ صلاح الدين فى إكرام من يرد إلى بيت المقدس من حجاج مسيحيين وقدم الطعام لهم .

وعاد صلاح الدين إلى دمشق وكان يوم دخوله إليها مشهوراً وفرح الناس به فرحاً عظيماً لطول غيبته وذهاب العدو عن الشام والتقى فى دمشق بأولاده الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر ولحق به أخوه الملك العادل .



وفاة صلاح الدين

أخذ صلاح الدين بعد مغادرة ريتشارد قلب الأسد بلاد الشام فى عمارة البيمارستان والمدرسة فى بيت المقدس ومن بيت المقدس اتجه إلى نابلس وسبسطية وكوكب وبيروت وأخذ يتفقد القلاع ثم اتجه إلى دمشق .

ولكن لاحظ على صلاح الدين ثقل الحركة والكسل وانحراف المزاج وخرج صلاح الدين لاستقبال الحجاج سنة ٥٨٩هـ فى يوم عظيم اجتمع فيه جمع كبير من أهل دمشق فعاد ومرض من يومه مرضاً حاداً « حمى صفراوية » واشتد الألم فى رأسه ولم ينجح الأطباء فى علاجه إذ أخذ المرض فى ازدياد سريع وطلب ماء ليشرب ولكن صلاح الدين شكا من شدة حرارة الماء ولما أحضر ماء مرة ثانية شكا صلاح الدين من برودته وقال « سبحان الله ، ألا يمكن لأحد تعديل الماء » .

ولكن المرض اشتد على صلاح الدين وأخذ يغيب ذهنه وفى ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ زاد المرض عليه وتوفى فى هذه الليلة بعد مرض استمر اثنا عشر يوماً .

ودفن فى قلعة دمشق ونقل إلى المدرسة العزيزية التى بناها العزيز عثمان بن صلاح الدين بعد ذلك .

صفات صلاح الدين

توفى صلاح الدين عن سبع وخمسين عاماً وأن شهرة صلاح الدين فى التاريخ ترجع إلى صفاته التى تحلى بها فقد كان كريم الخلق حاكماً عادلاً وكان منهج صلاح الدين فى الحكم هو ماقال له لابنه الملك الظاهر عندما خرج إلى إمارته حلب وقال له بعض النصائح « أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس ، لا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد وإضرار ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه الكريم » .

كما ألغى بعض المكوس والضرائب ورفع الظلم عن الناس وألغى الضريبة التى كانت تفرض على الحجاج وإنشاء عدد من الكتاتيب وخصص المعلمين لتعليم الأيتام والفقراء وإنشاء المارستان فى القاهرة وهو مستشفى كبير ورتبت فيه ثلاث أقسام للعلاج أولها خاص بالرجال وثانيها خاص بالنساء والثالث خاص بالأمراض العقلية .

ومن أهم صفاته شجاعته وجهاده فقد كان لا يقنع إلا بالخروج إلى الحرب ويشارك الجند المخاطر وأهوال الحروب وكان محباً للجهاد « لقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله » .

وكان تدين صلاح الدين واضح فى المحافظة على صلاة الجماعة حتى فى مرضه وكان حرصه على الصيام مثل حرصه على الصلاة أما الحج لم يستطع بسبب الجهاد الذى أخذ كل وقته ولم يستطع الحج أيضاً بسبب نقص المال فلم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهماً ناصرية .

يحب سماع القرآن والحديث ويعرف عن صلاح الدين الصبر والإيمان بالله وقضائه وهذا الصبر هو الذى جعله يوصل الجهاد سنوات طويلة وكان يقاتل فى بعض الأحيان وهو يعانى الألم والمرض ويصبر عليه .

أما عن كرمه فقد كان يعطى فى وقت الضيق مثلما يعطى فى وقت السعة وعن عدله فقد جلس صلاح الدين ينظر فى شكاوى الرعية بنفسه وجعل ذلك يوم الاثنين والخميس .

أما مروءته وتسامحه فقد كانت من الصفات التى أجمع عليها الناس العدو قبل الصديق وقد حضرت إليه امرأة صليبية تبكى على فقد ابنتها فأمر صلاح الدين من يذهب إلى سوق العسكر ويسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها .

وكان رحمه الله ـ كريماً حليماً حسن الأخلاق متواضعاً صبوراً ـ اللهم ارحم صلاح الدين الذى بذل الجهد فى نصرة الدين




الظاهر بيبرس

نشأة دولة المماليك

لاشك أن قيام الدولة الأيوبية سنة ١١٧١م زاد من أهمية مصر والدور التى قامت به فى الحروب الصليبية ، وأدى ذلك إلى ظهور أبطال على مسرح التاريخ العربى .

ويعد صلاح الدين الأيوبى الشخصية الكبرى التى سجل التاريخ بطولاتها ، فإن أحدًا من خلفاء صلاح الدين لم يستطع أن يواصل سياسة صلاح الدين بنفس قوته .

وفى أعقاب وفاة صلاح الدين انقسم أبناء البيت الأيوبى ، وعجزوا عن حفظ كيانهم ضد الخطر الصليبى ، حتى اضطروا إلى الاعتماد على المماليك فى الدفاع عن مصالحهم مما أدى إلى زيادة نفوذ هؤلاء المماليك فى مصر ، حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك فى الحكم سنة ١٢٥٠م .

نشأت دولة المماليك فى ظل ظروف قاسية وأمامها مشكلتين كبيرتين وهما : (خطر الصليبيين وخطر المغول) . .

والصليبيون كانوا قد ثبتوا أقدامهم فى بلاد الشام وأطراف العراق ، وأخذوا يمدون نشاطهم إلى مصر ووادى النيل جنوبًا وفى بلاد الجزيرة شمالاً ، وأدى تفكك القوى الإسلامية وانحلالها وعدم ترابطها إلى انتصارات عديدة للصليبيين.

لم يتقاعس سلاطين المماليك عن النهوض بتلك المسئوليات الكبيرة ولم يكتفوا بطرد آخر البقايا الصليبية من الشام وإنما استأنفوا الحرب ضد الصليبيين فى أرمينيا الصغرى وفى قبرص ورودس .

ولكن كان هناك خطر فاق خطر الصليبيين أنفسهم وهو خطر المغول وكان هولاكو قد نجح فى اقامة دولة للمغول فى فارس ويقول ابن الأثير « أن المسلمين منذ أن بعث نبيهم عليه الصلاة والسلام لم يمروا بمثل تلك المحنة » .

وقد غزا المغول العراق سنة ١٢٥٧م واستولوا على بغداد فأشعلوا النار فى دورها وقتلوا الآلاف وعلى رأسهم الخليفة العباسى .

وأخذت مصر لتدرأ عن العالم العربى خطر المغول واستطاع الجيش المصرى أن ينزل بهم الهزائم المتلاحقة فى عين جالوت وطورا عند حمص ، أو أطراف العراق .

وهناك عامل هام ساعد المماليك على الاستمرار فى تنفيذ مشاريعهم الضخمة مثل النشاط التجارى الكبير بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر ومصر وهو الطريق الوحيد الأكثر أمناً واستفاد سلاطين مصر من تلك الفرصة ، فاحتكروا تجارة الشرق وجمعوا من وراء ذلك أموالاً ضخمة مكنتهم من أن يحيوا حياة مترفة وقد كتب المقريزى فى كتاب المواعظ والاعتبار عن حجم الثروة فى أحد القصور والتحف والكنوز حتى أن سعر الذهب بالديار المصرية انخفض عقب نهب قصور أحد الأمراء سنة ١٣٤١م لكثرة ما وصل إلى أيدى الناس من هذا الذهب .

وفى هذا العصر ظهرت الاحتفالات الفخمة والملابس الثمينة والحلى النادرة وتنافس الجميع فى تشييد القصور من وزراء وكتاب وتجار والتفنن فى زخرفتها والتألق فى تأثيثها .

وينتسب المماليك فى الغالب إلى أساتذتهم فالمملوك الأشرفى ينسب إلى أستاذه الأشراف ، والمملوك الظاهرى ينسب إلى أستاذه الظاهر وقد ينسب إلى قيمته وذلك مثل قلاوون الألفى الذى اشترى بألف دينار .

وفى ظل هذه الأحداث ظهر السلطان الظاهر بيبرس ليقوم بدور المؤسس الحقيقى لدولة المماليك .



ظهور بيبرس على الساحة

اختلف المؤرخون عن نشأة بيبرس وإن كان أغلب المؤرخين اتفقوا على أنه تركى الجنس من مواليد بلاد القفجاق فى جنوب روسيا وقضى طفولته حتى أغار عليها التتار وكان بيبرس من ضمن الأسرى واشتراه أحد تجار الرقيق وتنقل فى صحبة تجار الرقيق حتى وصل به الأمر إلى حماه وكان معه زميل له حيث عرضهما أحد تجار الرقيق على المنصور ملك حماه وكان المنصور صغير السن واعتاد المنصور أن يستشير والدته وقام المنصور بعرض الغلامين بيبرس وزميله على والدته لأخذ رأيها وعندئذ سمحت بشراء زميل بيبرس . وقالت عن بيبرس «هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة ، فإن فى عينيه شراً لائحاً !! » وانتقل بيبرس ومعه زميله إلى حماه حيث سمع الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر عن المملوكين الصغيرين فاشتراهما فى حماه وكان الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار معتقلاً فى حماه حتى أفرج عنه وانتقل بيبرس معه إلى مصر ونسب بيبرس إلى أستاذه الأول وأصبح يعرف باسم بيبرس البندقدارى .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر قد أفرط فى شراء المماليك واعتمد عليهم بعد أن تخلى عنه الأكراد وكان الملك الصالح قد صادر ممتلكات الأمير علاء الدين وكان بيبرس من ضمن ممتلكات الأمير علاء الدين وصار بيبرس من مماليك البحرية الذين ساكنوا قلعة الروضة وقد علا نجم بيبرس بسرعة عند الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، ومات السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤٩م وخدم بيبرس من بعده ابنه تورانشاه وفى ذلك الوقت دخل لويس التاسع ملك فرنسا مصر واستولى على دمياط واتجه إلى المنصورة وفى ذلك الوقت كان تورانشاه بعيداً عن مصر فى حصن كيفا بالعراق وأصبحت مقاليد الدولة فى يد شجرة الدر زوجة الصالح أيوب وخرج المصريون ومعهم المماليك البحرية لقتال الصليبين واستطاع المصريون أسر لويس التاسع ملك فرنسا وقادة جيشه . بعد ذلك زادت قوة المماليك البحرية وأحسوا بأهميتهم فى البلاد .

وصل تورانشاه بن الصالح أيوب إلى مصر قادماً من العراق ونودى به سلطاناً على مصر ولكن تورانشاه وجد قوة تقاسمه السلطان وأن نفوذها فى زيادة وهى المماليك البحرية . وساءت العلاقات بين السلطان والمماليك البحرية ولم يحفظ تورانشاه جميل زوجة أبيه شجرة الدر التى صانت له حقه فى الملك وأرسلت إليه على عجل لسرعة العودة من حصن كيفا بأطراف العراق. وقد أرسل إليها تورانشاه يتهمها أنها أخفت مال أبيه . استقر رأى زعماء المماليك البحرية وشجرة الدر على قتل تورانشاه . وكان قتله على يد الأمير ركن الدين بيبرس وبعض الأمراء فى فارسكور سنة ١٢٥٠م . وكان تورانشاه آخر سلاطين بنى أيوب فى مصر وتولت شجرة الدر الحكم بناء على رغبة المماليك البحرية وأجزلت شجرة الدر العطاء للمماليك البحرية ولم يرض بنو أيوب بالشام عن انتقال السلطة إلى يد شجرة الدر واتفق المماليك على أن تتزوج شجرة الدر عز الدين أيبك وأن تتنازل له عن السلطنة وأقاموا المماليك البحرية معه فى الحكم أحد أبناء البيت الأيوبى واختاروا الأشرف موسى الأيوبى وكان طفلاً فى السادسة من عمره .

ومع ذلك وكل هذه المحاولات لاسترضاء بنى أيوب لم تنجح ، واستولى الناصر يوسف الأيوبى على دمشق وخرج منها يطلب غزو مصر وبفضل المماليك البحرية تمكن أيبك من هزيمة الأيوبيين سنة ١٢٥٠م .

وازداد نفوذ المماليك البحرية وكان من أشهرهم الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين بلبان الرشيدى .

لكن أيبك طرد شريكه فى السلطنة الأشرف موسى الأيوبى وتمكن من عقد صلح مع الناصر يوسف الأيوبى صاحب الشام وهكذا لم يبق أمامه سوى المماليك البحرية وتمكن من تنفيذ مؤامرة لقتل فارس الدين أقطاى فى القلعة وقرر بيبرس الفرار إلى الشام ومعه البقية الباقية من المماليك البحرية واستطاع الدخول فى خدمة الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب .

ولكن الأمور لم تستقر لعز الدين أيبك وكانت شجرة الدر شديدة الغيرة وعندما علمت بأن أيبك يريد الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وانتهى الأمر بأن قتلت شجرة الدر زوجها أيبك وقتل المماليك شجرة الدر انتقاماً لمقتل أيبك . وتم اختيار على بن أيبك سلطاناً ولكنه كان صغيراً فى الخامسة عشر من عمره .

مع استيلاء المغول على بغداد سنة ١٢٥٨م أعلن سيف الدين قطز نفسه سلطاناً على مصر بعد أن نادى بأن المنصور على بن أيبك صغير لا يعرف أصول الحكم وتدبير المملكة .

فى سنة ١٢٦٠م استولى المغول على حلب ودمشق وقد أرسل هولاكو خطاباً إلى المظفر قطز فى مصر يطلب منه التسليم « .. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى .. فأى أرض تأويكم وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ... !! » .

وجمع قطز الأمراء واستشارهم وأجمع رأيهم على الجهاد والمقاومة والثبات أمام هذا العدد .

وأمر بالقبض على رسل المغول وقتلهم وعلق رؤوسهم على باب زويلة . وأرسل قطز مقدمة الجيش إلى غزة وعلى رأسها الأمير ركن الدين بيبرس وكانت مقدمة الجيش المغولى عند غزة بقيادة بيدرا ، وقبل أن تصل الإمدادات إلى بيدرا بادر بيبرس بالهجوم فأنزل بالمغول الهزيمة .

وصل قطز على رأس بقية الجيش المصرى وأسرع كتبغا بالحضور بعد أن علم

بهزيمة رجاله عند غزة والتقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت بين بيسان ونابلس وأظهر جيش مصر شجاعة نادرة وداهم الجيش المصرى الجيش المغولى بقيادة كتبغا من كل اتجاه وظهرت بطولة قطز الذى ألقى خوذته عن رأسه على الأرض عندما شاهد اضطراب الجيش المصرى فى أول الأمر وصاح بأعلى صوته «وا إسلاماه» وظهر بيبرس طيلة المعركة بشجاعة نادرة وفروسية جعلته محور النصر وأصبح قطز سيد الموقف فى بلاد الشام غير أن الأمور لم تسير فى صالح السلطان المظفر قطز وذلك بسبب ما نجم عن الخلاف بينه وبين بيبرس وقد قرر بيبرس الانتقام من قطز وانتهز فرصة رغبة قطز فى الصيد قرب الصالحية وتقدم بيبرس منه وطلب الموافقة على رغبة معينة فوافق السلطان المظفر على ما طلبه بيبرس ، فانحنى بيبرس مقبلاً يد السلطان ، واستل خنجراً قضى به على السلطان قطز فى سنة ١٢٦٠م .

السلطان الظاهر بيبرس

كان من الطبيعى أن تكون السلطنة من نصيب الأمير ركن الدين بيبرس وذلك لأسباب أهمها أنه صاحب فكرة قتل قطز وهو أقوى الأمراء فضلاً عن البطولة التى حققها فى الحرب ضد المغول ولكن سهولة وبساطة إحلال القاتل محل القتيل كان أمراً يسترعى الدهشة . وأسرع بيبرس إلى القاهرة قادماً من الصالحية وكانت المدينة قد زينت لاستقبال قطز بطل معركة عين جالوت ، ونادى المنادى فى الناس «ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » .

ودخل بيبرس قلعة الجبل . غير أن الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير دخل على السلطان بيبرس وأشار عليه بتغيير لقبه « القاهر » وقال له : « ما لقب به أحد فأفلح ، لقب به القاهر بن المعتضد فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسمل ، لقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسُمَّ » لذلك تشاءم بيبرس واتخذ لقباً جديداً هو «الملك الظاهر » .

مع دخول بيبرس قلعة الجبل فى يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٢٦٠م بدأت صفحة مضيئة فى تاريخ مصر والعرب وهو بذلك يعد المؤسس الحقيقى لدولة المماليك وقد شغل بيبرس كرسى السلطنة سبعة عشر عاماً بعد فترة من القلق استمرت عشر سنوات تعاقب عليها خمسة سلاطين .

مع بداية حكمه استطاع تقوية جبهته الداخلية وأن يستميل عامة الناس وذلك بتخفيف عبء الضرائب وألغى جميع الضرائب التى كان قد استحدثها قطز لمواجهة الخطر المغولى .

وكان بيبرس قد كتب إلى الأمراء والنواب يخبرهم بتوليه السلطنة فأجابوا بيبرس بالسمع والطاعة عدا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى أنشأ قلعة فى دمشق حتى يكون مستعداً للهجوم من جانب بيبرس ومن الواضح أن ثورة الأمير سنجر الحلبى أصبحت ذات خطر كبير على نفوذ بيبرس وذلك بعد أن وضع سنجر اسمه جانب اسم الظاهر بيبرس على النقود وأخذ يحاول مد نفوذه إلى أنحاء الشام ولكن بيبرس استطاع أن يستميل الناس بسلاح المال ضد سنجر الحلبى .

وانفض الأمراء عن سنجر وتم القبض عليه واعتقله السلطان بالقلعة حتى أفرج عنه ومنحه نيابة حلب وكانت هناك أيضاً ثورة الأمير شمس الدين أقوش البرلى الذى أعلن بعد ذلك توبته وندمه وطلب العفو من السلطان بيبرس فعفا عنه . ومن بداية حكمه أخذ الطريق إلى استمالة قلوب الأمراء عن طريق العفو وحسن المعاملة .

ولكن الملك المغيث عمر الأيوبى أخذ يغير على الشوبك وبعض المناطق التابعة للسلطان الظاهر وكان الظاهر بيبرس لا يطمئن إلى بنى أيوب وكان المغيث عمر الأيوبى أقوى من بقى من بنى أيوب وخرج بيبرس سنة ١٢٦٢م وذلك للقضاء على المغيث وأسرعت أم المغيث لمقابلة السلطان لتشفع فى ولدها وأعلن السلطان عفوه عن المغيث ولكنه أرسل به إلى القلعة ثم قتل بعد ذلك .

إحياء الخلافة العباسية بمصر

أصبح العالم الإسلامى يحس بفراغ كبير بعد مقتل الخليفة المستعصم العباس على أيدى المغول وأصبح المسلمون بدون خليفة وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول ﷺ ولم يكتفى المغول بقتل الخليفة ولكن أيضاً أحرقوا جوامعهم وهدموا مساجدهم وكان السلطان قطز قد فكر فى إحياء الخلافة العباسية عقب انتصاره فى عين جالوت غير أنه لم يستطع تنفيذ هذا المشروع لقتله مع أن السلطان الظاهر بيبرس هو صاحب فكرة إحياء الخلافة العباسية فى مصر وذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر فى دمشق أخبره بأن أحد بنى العباس وهو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضئ لدين الله العباس وصل إلى دمشق ومعه جماعة يشهدون على صحة نسبه فأمر بيبرس علاء الدين البندقدار بالقيام على خدمته ، وفى القاهرة استقبل الأمير العباس استقبالاً حافلاً . وبعد ثلاثة أيام عقد السلطان بيبرس مجلساً لمبايعة الأمير العباس بالخلافة وبعد ذلك قام الخليفة الجديد وقلد السلطان الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية وبذلك أصبح السلطان بيبرس حاكماً شرعياً اختاره الخليفة العباس لحكم البلاد الإسلامية وليس مغتصب الحكم من بنى أيوب أو من قطز .

غير أن السلطان بيبرس شجع الخليفة على استرداد بغداد من يد المغول وأرسل معه قوة صغيرة وسرعان ما أبداها المغول وسقط الخليفة قتيلاً فى المعركة .

وأرسل السلطان بيبرس فى طلب أمير عباسى جديد وهو أبو العباس أحمد وبعد أن ثبتت صحة نسبه بايعه السلطان بيبرس . وقلد الخليفة الجديد السلطان أمور البلاد ، غير أن بيبرس حد من حرية الخليفة وجعل عليه مراقبة شديدة ولم يسمح له بالظهور فى المناسبات العامة وحدد له ولأسرته ما يكفيهم من طعام .

حروب بيبرس

مع بداية حكم بيبرس استطاع أن يقضي على الثورات والفتن وكان أمام بيبرس خطران : الأول الصليبيون الذين استقروا فى مدن الشام وشكلوا خطراً واضحاً على الوطن والخطر الثانى : هو المغول الذين استقروا فى العراق بعد هزيمة عين جالوت وقضى السلطان بيبرس سنين حكمه فى حركة دائمة حتى قيل فيه :

يوما بمصر ويوماً بالحجاز وبالشـ ـام يوماً ويوماً في قرى حلب

استطاع بيبرس محالفة الامبراطورية البيزنطية وهى العدو التقليدى للصليبيين بالشام وأرسل السلطان بيبرس الهدايا إلى مانفرد ملك صقلية فرد عليه مانفرد بالمثل مما قوى أواصر الصداقة بين الطرفين وبذلك حافظ على سياسة الود بين حكام جزيرة صقلية وسلاطين مصر .

بيبرس ومحاربة الصليبيين

الصليبيون كانوا أيسر كثيراً من المغول وكان بيبرس غير ملتو فى حربه مع الصليبيين صريحاً وكثيراً ما كان يلجأ إلى عقد المعاهدات مع الصليبيين .

أول احتكاك بين بيبرس والصليبيين كان سنة ١٢٦٠م عندما أغار بعض الأمراء على إمارة أنطاكية ولكن بيبرس لم يشأ القيام بهجوم على الصليبيين فى بداية حكمه .

وبعد أن فرغ السلطان بيبرس من المشكلات الداخلية وكذلك إحياء الخلافة العباسية وفى سنة ١٢٦٣م اتجه إلى غزة ومنها إلى جبل الطور قرب عكا وقام بيبرس بعدة هجمات على الصليبيين حتى يتعرف على موضع القوة والضعف وأرسل الأمير علاء الدين طيبرس إلى الناصرة وهدموا كنيستها وأرسل الأمير بدر الدين الأيدمرى إلى عكا وذهب بيبرس إلى عكا بنفسه وطاف بأسوار عكا وشرع الصليبيون فى حفر الخنادق وإقامة تحصينات قرب عكا ولكن بيبرس ورجاله ردموا الخنادق وهدموا الأبراج المحيطة وهاجموا أبواب عكا : مما أدى إلى هروب الصليبيين داخل أسوار عكا .

وانتــقل بيبــرس إلى الناصرة ومنهــا رحل إلى القدس وأمــر بعمــارة المســجد الأقصى ثم استولى على الكرك ثم عاد إلى مصر وأخذ يقوم بعدة جولات تفتيشية داخل مصر ثم اتجــه إلى مهاجمة قيسارية وقام بهدم سورها ولم يكد يمـر أسبوع حتى سلمت قلعة قيسارية بعد حصــارها وأمر بعض رجاله بقيادة الأميـر شهاب الدين القيمرى بالذهاب إلى بيسان ومجموعة أخرى إلى عكا ومجموعة ثالثة إلى حيفــا ففر الصليبيــون من المدينة وقلعتهــا ولاذوا بسفنهم فأحرق المسلـمون أبوابها وعادوا بالأسرى والغنائم . ثم انتقل بيبــرس إلى أرسوف وهى قلعة حصينة ونقل إليها كـمية كبيرة من الأحطاب وبدأ بيـبرس فى حفر مجمـوعة من الخنادق حول المدينة لإحكام حصارها وشاركت النساء في الجهاد وسقطت أرسوف فى ٢٦ أبريل ١٢٦٥م واستخدم بيبرس أسرى الصليبيين فى أرسوف فى هدم مدينتهم وتخريبها ثم عاد إلى القــاهرة فى مايو سنة ١٢٦٥م ثم عــاد مرة أخرى إلى الشـام فى مايو سنة ١٢٦٦م واتجــه إلى الخليل ثم عين جــالوت وكان بوهيـموند الـسادس أمـير أنطاكية أغار على حمص فأرسل السلطان بيبرس جيشاً إلى بوهيموند بقيادة الأمير سيف الدين قلاوون الألفى والأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى .

واتجه بيبـرس إلى صفد وأظهر المسلمون بقيادة بيـبرس شجاعـة نادرة وعجز الصليـبيون عن المقــاومة وطلبـوا الأمان وكــان ذلك سنة ١٢٦٦م فى شهـر يونية واشترط بيبــرس عدم الخروج بمال أو سلاح وألا يتلفوا شيـئاً من ذخائرهم ولكن عند خروج الرجال مـن صفد وجد بيبــرس ما يخلف الشرط الذى اشتـرطه فأمر بقتل حامية صـفد ثم أمر بتخريب قلعة صفد . ولكنه عــاد فى العام الثانى وأعاد بناء القلعـة وبنى بها جامـعين ، اتجه إلى دمـشق واستولى بعـد ذلك على هونين وتبنين والرملة ثم عاد إلى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٢٦٦م وغادرها فى ٢٥ مارس ١٢٦٧ إلى غزة وبدأ بالهجوم على عكا ولجأ إلــى حيلة تدل على ذكاء بيبرس بأن أمر بعض جنوده بارتداء ملابس فـرسان الداوية والاسبتارية فلم يشعـر الصليبيون بالمسلمين إلا وهم على أبواب مدينتهم عكا .

اتجهت معظم القوى الصليبية تريد الاعتذار وإعلان الندم وتطلب الصلح غير أن بيبرس رأى أن يعقد صلحاً مع البعض دون البعض الآخر وعقد بيبرس صلحاً مع أمير بيروت وصاحب صور ومدة الهدنة هي عشر سنوات .

وهنا نتوقف عند هذه السياسة المكيرة التي تدل على ذكاء نادر من السلطان بيبرس حيث أنه لو رفض كل طلبات الصلح لأدى ذلك إلى تجميع كل القوى السياسية الصليبية ضده وتكتلها عليه وأيضاً لم يقبل كل طلبات الصلح حتى يتمكن من القضاء عليها الواحدة بعد الأخرى .

واتجه بعد ذلك إلى يافا وهدم قلعتها واستخدم رخامها في بناء مقصورة ومحراب الجامع الظاهرى بالحسينية . ثم اتجه إلى الشقيف أرنون وهو أحد الحصون القوية ودب الخلاف داخل الشقيف بين الصليبيين على أثر حيلة قام بها بيبرس وفى ذلك الوقت حاصر المسلمين الحصن وبعد وقت قصير طلب الصليبيون تسليم الحصن .

واتجه بيبرس إلى أنطاكية وهى مدينة كبيرة وقوية عجز عن دخولها البيزنطيون وكتب بيبرس ينذرهم بالزحف عليهم وفاوضهم ثلاثة أيام فرفضوا حتى نجح فى اقتحام المدينة وفرت الحامية الصليبية وعددها ثمانية آلاف إلى القلعة يطلبون الأمان فأمنهم بيبرس ودمر القلعة ويعد الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨م أعظم فتح حققه السلطان بيبرس والمسلمون على الصليبيين بعد استيلاء صلاح الدين الأيوبى سنة ١١٨٧م على بيت المقدس وأدى هذا الانتصار إلى طلب العفو والرضا من السلطان بيبرس من جانب صاحب عكا الذى أسرع إلى طلب الصلح وأرسل إلى السلطان بيبرس الهدايا وتم الاتفاق على هدنة لمدة عشر سنوات .

واتجه السلطان إلى صور فى يولية سنة ١٢٦٨م وأغار عليها وغنم المسلمون أشياء كثيرة . ودخل بيبرس القاهرة فى هدوء رغبة منه فى عدم تحميل أهل القاهرة مصاريف وأعباء إقامة الزينات فرحاً بانتصاراته على الصليبيين والاستيلاء على أنطاكية .

وهنا لابد من الوقوف أمام السرية المطلقة التى اتبعها بيبرس حيث نجده يخرج إلى الحج فى سرية تامة وعندما كتب إليه أحد الأمراء يخبره برغبته فى الذهاب معه إلى الحجاز نجد أنه أمر بقطع لسانه وأيضاً نجده يدخل البلاد فى سرية وفى جولات تفتيشية سواء كان الأمر فى مصر أو الشام ونجده بعد أن انتهى من قضاء مناسك الحج يرجع لزيارة حلب والتفتيش عليها وعلى قلعتها وفى الطريق يزور دمشق ثم القدس والخليل ثم القاهرة .

وتصل الأخبار إلى السلطان بيبرس بخروج لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملة غير أن لويس التاسع لم يغزو مصر ولكن وصل إلى تونس وأمر بيبرس بالإسراع إلى نجدة تونس . وصلت الأخبار بمقتل لويس التاسع وفشلت حملته على تونس .

غير أن السلطان بيبرس وجد أن أمير طرابلس بوهيموند السادس كان أقوى الأمراء الصليبيين واستطاع بيبرس إسقاط حصن الأكراد وحصن عكا ـ وعقد صلح مع بوهيموند السادس لمدة عشر سنوات .

بيبرس والباطنية

الباطنية أطلق الناس عليهم هذا الاسم لأن الاسماعيلية الذين ينسبون إلى اسماعيل بن جعفر الصادق كان مذهبهم وإيمانهم بأن العقيدة ظاهراً وباطناً وغير أنهم بدأوا فى أن ينفذوا بعض الجرائم ضد زعماء الجهاد السلامى ضد الصليبيين فقتلوا أمير حمص وخلف بن ملاعب صاحب فامية ومودود أتابك الموصل سنة ١١١٣م وحاولوا قتل صلاح الدين الأيوبى وأصابوه وأخذ الباطنية التقرب إلى الصليبيين ضد الأيوبيين والمماليك وزاد من قوة الباطنية امتلاكهم بعض الحصون مثل العليقة والقدموس والخوابى والرصافة .

واضطر بيبرس إلى فرض ضرائب كبيرة على الهدايا التى ترسل إلى شيخ الباطنية من الصليبيين ولكن نفوذ الباطنية أخذ فى الضعف ولجأت الإسماعيلية

الباطنيـة إلى دفع الأموال للصليبيين واشـترط بيبـرس فى الصلح مع الاستبارية الامتناع عن أخذ الأموال من الإسماعيلية البـاطنية ودفعوا الباطنية الجزية للسلطان بيبرس . غيـر أن السلطان زاد فى نفوذه وأخذ يولى من يشأ شيخـاً للباطنية وأخذ السلطان يستـولى على حصون الإسـماعيليـة حتى استـولى على جميع الحـصون وانتهى أمرهـم فى الشام .

غزو جزيرة قبرص

بدأ هيو الـثالث لوزجنان العـداء للمسلمين بـوصفه صـاحب جزيرة قـبرص ومملكة بيت المقـدس إذ قبض على رسل بيـبرس وهم فى طريقـهم إلى سلاجـقة الروم.

وعندما خرج ملك قـبرص هيو الثالث إلى عكا أسـرعت السفن المصرية إلى الجزيرة أثناء غيـابه عنها واستطاع المقدم بن حسـون أن يطلى السفن بالقار ويرسم عليها الـصلبان وغير أن المسلميـن اضطربوا أمام ريحاً شديدة أتلفت إحـدى عشر سفينـة فأسروا القبارصـة جميع من كان فى الـسفن الإحدى عشر عـدا المقدم بن حسون الذى رجع ومعه السفن الستة البـاقية وأرسل بيبرس لشراء الأسرى غير أن الصليبيين غالوا فى ثمن المماليـك حتى تمكن المسلمون من رشوة الحراس وتهريب المماليك .

بيبرس والمغول

الظاهر بيبـرس والمغول كـان الصراع بينهم أمراً طبـيعيـاً نتيـجة لأن المسلمين يكرهون المغول لأنهم المسئولين عن سقوط الخلافـةالعباسية وتخريب بغداد والواقع أن السلطان بيبرس لـم يفـصل بين حروبه مع المغول وحروبه مع الصليـبيين ولكنه كان كثيـراً ما يحارب الاثنين فى وقت واحد ولكن بيبـرس قبل أن يصبح سلطاناً اكتسب خبرة عندما حارب المغول فى غزة وفى عين جالوت .

غير أن هناك فرق بين مغول فارس وهم الذين ارتكبوا الكثير من الجرائم فى حق المسلمين وقتلوا الخليفة المستعصم .

وبين مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية وموقعها بحر قزوين ونهر الفولجا وهم مختلفين تماماً عن مغول فارس حيث أن بركة خان مغول القفجاق اعتنق الإسلام وكره وغضب مما فعله مغول فارس .

ورأى بيبرس أن يكتب إلى بركة خان يطلب منه قتال مغول فارس بعد أن عرف بإسلام بركة خان ويبدو أن العلاقات كانت بين الطرفين سيئة بسبب مشكلات على الحدود وأصبحت العلاقات بين القبيلة الذهبية وبين السلطان بيبرس على أحسن ما يكون حيث رفع بعض مغول القفجاق إلى درجة الإمارة وكتب بركة خان يقول للسلطان بيبرس « فليعلم السلطان الظاهر أننى حاربت هولاكو الذى هو من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام ، لأنه باغ والباغى كافر بالله ورسوله . . » ورد السلطان على الرسالة ومعها الكثير من الهدايا .

ولم تتوقف العلاقة إلى هذا الحد وإنما أراد بيبرس أن يقوى العلاقة بينه وبين بركة خان بزواجه من ابنة بركة خان مما يدل على براعة نادرة لسياسة السلطان بيبرس وبذلك انشغل مغول فارس بحرب مغول القفجاق عن السلطان بيبرس ولكن مغول فارس حاول التحالف مع القوى الصليبية ضد المماليك .

وفى سنة ١٢٦٥م أغار المغول على البيرة وهى قلعة على نهر الفرات فأرسل السلطان الأمير عز الدين ايغان على رأس أربعة آلاف مقاتل إلى الشام ثم أرسل الأمير جمال الدين المحمدى على رأس أربعة آلاف أخرى ثم خرج السلطان بيبرس بنفسه إلى الشام وعندما شاهدوا المغول هذه الجموع فروا ورموا مجانيقهم غير أن بيبرس أمر بحمل آلات الحصار والمزيد من الأسلحة إلى البيرة عن طريق الشام نظراً للأهمية العسكرية للبيرة لأنه يعتبرها منفذ هام للعبور من شمال العراق إلى شمال الشام وكذلك أمر بتخزين كل ما يحتاج إليه الأهالى فى الحصار لمدة عشر سنوات .

وأمر بتوزيع الأموال والملابس على أهل البيرة تقديراً لشجاعتهم ضد التتار .

مع وفاة هولاكو خان تولى ابنه أبغا خلفاً له وحرص أبغا بن هولاكو على تدعيم صلاته بالقوى المسيحية فتزوج ابنة الامبراطور البيزنطى .

يبدو أن هناك مشكلات داخلية وخارجية كان يعنى منها أبغا وكانت لا تشجعه على حرب المسلمين . وفى سنة ١٢٦٥م أرسل الرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس تحمل الهدايا وتطلب الصلح ولكن بيبرس رفض لأنه لا يقبل الصلح مع من قتلوا خليفة المسلمين وهدموا المساجد ومزقوا العالم الإسلامى ودمروا مدنه .

وفى سنة ١٢٦٨م كرر أبغا الطلب فى الصلح ؛ وسط فى هذا الصلح ملك أرمينيا الصغرى ولجأ إلى التهديد وعمد إلى تجريح السلطان بيبرس على لسان رسوله بأصله غير الحر ورد السلطان بيبرس على الرسول قائلاً « اعلم أنى وراءه بالمطالبة ، لا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض » .

وأراد المغول العدوان على الساجور قرب حلب فأرسل السلطان بيبرس الأمير علاء الدين البندقدار على رأس قوة وقبل وصول بيبرس إلى دمشق سمع بهزيمة المغول . وأراد بعض الصليبيين حرب المسلمين فى الشام بناء على اتفاق سابق مع المغول ولكن سفنهم غرقت من تأثير الريح الشديدة وتدخل الصليبيون مرة أخرى فأغاروا على قاقون ولكن المسلمين ردوهم وأغار بيبرس على عكا وطلب الصليبيون الصلح ثم عقد هدنة لمدة عشر سنوات وفى سنة ١٢٧١م هجم أبغا على المسلمين ولكنه هزم عند حران .

وأرسل أبغا الرسل إلى السلطان بيبرس فى طلب الصلح فأكرم السلطان الرسل وأرسل السلطان اثنين من كبار أمرائه إلى أبغا ومعهما الكثير من الهدايا ثم أرسل أبغا رسله وقد طلبوا أن يذهب الأمير سنقر الأشقر ثم نقضوا كلامهم فقالوا « يمشى السلطان أو من يكون بعده فى المنزلة إلى أبغا لأجل الصلح » ورد بيبرس «بل أبغا إذا قصد الصلح أو أحد من إخوته » ؛

ولكن أبغا أغار على البيرة ونصبوا المجانيق لمهاجمتها وأسرع السلطان الظاهر إلى البيرة ومعه بعض السفن وأظهر المسلمون شجاعة نادرة وأنزلوا بالمغول هزيمة وقتلوا الكثير منهم وأسروا عدداً كبيراً من المغول .

السلطان بيبرس وسلاجقة الروم

اعتمد أبغا على سلاجقة الروم وزعيمها معين الدين البرواناه فى الهجوم على المماليك ولكن بيبرس قام بحملة على بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى سنة ١٢٧٧م وقضى على الجيش المغولى فى أبلستين فى ١٨ أبريل .

وأدى ذلك إلى أن أعلن معين الدين البرواناه ولاءه للسلطان الظاهر بيبرس وعندما دخل أبغا أبلستين وشاهد عسكره صرعى وقتلى ولم يجد من عسكر الروم أى قتلى ولذلك أمر أبغا بنهب بلاد الروم وقتل معين الدين البرواناه وقتل المسلمين ويقال أنه قتل من فقهاء المسلمين ورعاياهم ببلاد الروم ما يزيد على مائتى ألف نفس .

وأدى ذلك إلى تقوية الحلف بين المغول والصليبيين وتحالف ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى مع المغول ضد المماليك .

السلطان بيبرس
وأرمينيا الصغرى

اعتمد هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى على أن يهاجم عين تاب سنة ١٢٦٤م ولكن السلطان بيبرس استطاع هزيمة الأرمن . ولجأ هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى إلى الحصار الاقتصادى على مصر والشام ومنع تصدير الحديد والأخشاب من آسيا الصغرى .

ولكن بيبرس استطاع أن يرسل جيشاً سنة ١٢٦٦م لمهاجمة أرمينيا الصغرى تحت قيادة الأمير قلاوون والملك المنصور صاحب حماة وقتل فى المعركة أحد أبناء الملك هيثوم الأول وأسر أحد الأبناء وعاد جيش بيبرس إلى الشام ومعهم أربعون ألف أسير ومن الغنائم الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى بعد أن أغاروا على المدن

الأرمينية وعاصمة أرمينيا سيسى واستطاع بيبرس أن يأخذ العديد من المراكز الهامة مثل دربساك ومرزبان التى تتحكم فى طرق المواصلات بين بلاد الشام والعراق وأرمينيا مقابل ابن هيثوم الأسير .

السلطان بيبرس
والعالم الإسلامى

من الطبيعى أن السلطان بيبرس استطاع أن يمد نفوذه إلى العالم الإسلامى فى كل من بلاد الشام والحجاز والكثير من البلاد إذ اتخذ من حروبه ضد الصليبيين والمغول ومن احياء الخلافة العباسية فى مصر أسلوباً لذلك .

وحرص بيبرس اقرار سلطانه على بلاد الشام واستطاع تقسيمها إلى نيابات وقد قسم الشام إلى أربع نيابات كبرى بالشام وهى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة صفد ونيابة الكرك .

وكذلك حرص بيبرس أن يظهر أمام جميع المسلمين فى صورة حامى الحرمين والدفاع عن المقدسات الإسلامية ومع بداية عهده استطاع أن يجهز الأموال لعمارة الحرم النبوى وكذلك أرسل الآلات والعمال لعمارة قبة الصخرة وإرسال كسوة قبر الرسول ﷺ وقد ذهب بيبرس إلى ما هو أبعد من ذلك وبسط النفوذ السياسى على تلك البلاد .

فنجد بيبرس يتدخل فى الخلافات بين أشراف الحجاز التى أتاحت له الفرص فى بسط نفوذه على الحجاز وتأكيد سلطانه على الأشراف جميعاً .

واستطاع بيبرس تسوية النزاع بين كل من الشريف بدر الدين مالك بن منيف ابن شيحة والشريف جماز أمير المدينة حول المشاركة فى الإمرة وامتثل جماز . واستطاع مرة أخرى فى تسوية النزاع بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه وشريكه فى إمارة مكة الشريف بهاء الدين إدريس وذهب بيبرس إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج سنة ٦٦٧هـ ووزع على الناس الكثير من الأموال سراً وأظهر ضروباً

من البر والتقوى وهو يطوف ويسعى ويصلى ويوزع الكسوة على أهل الحرمين والأموال .

وبعد الانتهاء من فريضة الحج عين الأمير شمس الدين مروان نائباً عنه في مكة .

وهكذا أصبح بيبرس يتدخل في شئون الأمراء في المشرق والمغرب في البلدان الإسلامية لأنه ممثلاً للقوة في العالم الإسلامي .

وعلى الرغم من الخلاف بين بيبرس وبنو حفص في تونس لأن ملوك بني حفص تلقبوا بلقب الخلافة والذى هيأ لهم ذلك هو شريف مكة أبو نمى .

وكان من شأن اعتراف أبي نمى شريف مكة بتعيينه الخلافة للحفصيين أن يؤثر على سيادة المماليك على الأماكن المقدسة في الحجاز ولكن بيبرس عجل في أحياء الخلافة العباسية . ولكن عندما علم السلطان بيبرس بخروج لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٧٠م إلى تونس أسرع بيبرس لنجدة تونس كما أمر عربان برقة بمساعدة تونس وهكذا تحمل السلطان الظاهر بيبرس هموم العالم الإسلامي وأصبح مسئولاً عن حماية أى بقعة من بقاع العالم الإسلامي .

العلاقات الأفريقية في عهد السلطان بيبرس

أهم الدول الأفريقية التى ارتبطت بعلاقات وطيدة مع مصر هي مملكة النوبة ومملكة الحبشة وزاد نشاط هذه العلاقات في عهد السلطان الظاهر بيبرس .

مصر ومملكة النوبة

تقع مملكة النوبة على حدود مصر من ناحية الجنوب وقد ارتبطت مصر بعلاقة قديمة مع مملكة النوبة بسبب روابط الجوار والكنيسة وكانت الكنيسة المرقسية بالإسكندرية ترتبط بصلة قوية بالكنيسة اليعقوبية بالنوبة ويلجأ للكنيسة المرقسية بالإسكندرية لتعين بطريرك النوبة . وفي عهد عمرو بن العاص حاول فتح النوبة

ولكنه لم ينجح فى تحقيق غرضه وجاء بعد ذلك والى مصرسنة ٦٥١هـ الذى نجح فى الوصل حتى عاصمة النوبة وعقـد صلحاً بين المسلمين والنوبيين على أن يقدم صاحب النوبة ٣٦٥ من الرقـيق سنوياً مقابل امداد المسلمين لأهـل النوبة بالحبوب والغلال والأقمشة .

ولا يعد ذلك نوع من الجزية بقدر ما هو نوع التعاون الإقتصادى .

وفى عهـد الظاهر بيبرس انتهـز الملك داود ملك النوبة فرصة انشـغال الظاهر بيبـرس فى أرمينيـا الصغرى وهاجم ثغـر أسوان وأسـر الكثير من أهل المسلمين وكذلك أغـار على ثغر عيذاب واعـتدى على الناس . أصبح ذلك يهدد مـصالح دولة المماليك التجارية وفى هذه الأثناء ذهب شكنده ملك النوبة المخلوع يشكو إلى السلطان بيبرس من ابن أخيه داود الذى عزله وأساء معاملته .

فأرسل بيبرس الأميرين شمس الدين أقـسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم على رأس حملة عظيـمة إلى النوبة سنة ١٢٧٦م وأعطى بيـبرس أوامره بتـسليم شكندة الملك المخلوع كل ما يتم فتحـه من بلاد النوبة وتحقق النصر على الملك داود الذى فر هارباً بعد أن أغار المماليك على قلعة الدر وقتلوا الكثير وتقدموا فى البلاد حتى أقاموا شكندة ملكاً على البلاد .

وغنم المسلمون الكثير من الأسرى وأخذوا على شكندة العهود بطاعة السلطان الظاهر بيـبرس ومن أهم شـروط الاتفاق هو أن يعـود شكندة إلى إرسال الرقـيق مقابل الغلال وكذلك ارسال الهدايا إلى السلطان وأن يكون نصف دخل بلاد النوبة لسلطان الظاهر وأن يعـمل شكندة على مـصادرة أمـوال الملك داود وارسالهـا إلى السلطان وأن يدفع دينار عن كل واحد من رعاياه كل سنة .

وعلى ذلك فإن حملة السلطان الظاهر بيبرس حقـقت ما لم تستطع تحقيقه أى حملة سابقة عليها منذ الفتح العربى لمصر .

ولكن سرعان مـا وقع داود أسيراً وأرسل إلى السلطان وسجـن حتى مات فى سجنه .

مصر والحبشة

سهمت مصر وكنيسة الإسكندرية فى نشر المسيحية فى الحبشة وقامت كنيسة الإسكندرية بتعيين مطارنة مصريين لرئاسة كنيسة الحبشة .

واستمرت تبعية كنيسة الحبشة لبطارقة الإسكندرية وأصبح الملك فى الحبشة يستمد سلطانه على الدولة من المطران المصرى . ويسعى الملك دائماً إلى كسب تأييد المطران وأيضاً الكنيسة المرقسية بالإسكندرية وفى عهد السلطان بيبرس أرسل إلى سفارة الحبشة لتعيين مطران جديد ولكنها تأخرت بسبب الحرب الأهلية داخل البلاد .

وكتب الملك يقونو أملاق الملك الجديد فى الحبشة إلى السلطان الظاهر بيبرس يريد تجهيز مطران من قبل الكنيسة المرقسية بالأسكندرية .

السلطان بيبرس وتنظيم الدولة

استطاع بيبرس بأن يحيط بكل أمور الدولة بحيث لم يخف عليه شئ من أمور دولته وامتاز السلطان الظاهر بيبرس بالحزم واليقظة وقد تحول حزمه الفائق إلى نوع من الشدة والقسوة فى بعض الأحيان . ودفعته رغبته فى إقرار العدالة فى الخروج فى جولات تفتيشية وهو متنكر للوقوف على أحوال الناس وإذا وجد تهاون من جانب أحد المسئولين فإنه يأخذ هذا التهاون بالعنف والشدة وحدث ذلك بأن صار منفرداً فى خفية ويسأل عن والى الغربية الأمير ابن الهمام فذكرت له سيرة سيئة فقبض عليه وفى سنة ١٢٦٨م خرج السلطان بيبرس سراً من الشام إلى مصر وارتدى ملابس بالية حتى لا يتعرف عليه أحد وأخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى وهو يتعرف على أخبار الولاة ولم يشعر أحد من الأمراء فى القاهرة ولا إبنه سعيد بدخول بيبرس القاهرة هكذا أخذ بمبدأ السرية حتى أن الناس أصبحوا لا يعرفون إذا كان السلطان فى الشام أو الحجاز أو مصر .

وظائف الدولة

اضطر سلاطين مصر إلى ترك البلاد مدة طويلة بسبب حروب الصليبيين لذلك وجدت فكرة من ينوب عن السلطان في مصر لرعاية أمور الدولة ولذلك أنشئت وظيفة نائب السلطان وأهم اختصاصات نائب السلطنة أنه يقوم مقام السلطان أثناء غياب السلطان وأول من تولى هذه الوظيفة في عهد بيبرس هو الأمير بدر الدين بيليك الخازندار .

وبسبب صلاحيات نائب السلطنة الكبيرة أدى ذلك إلى جعل الوزير محدود النفوذ وأهم اختصاصات الوزير، أنه مستشار السلطان في أمور الدولة ومنفذ لأوامر السلطان فيما يتعلق بالرعاية وقد تولى الوزارة الصاحب بهاء الدين بن حنا .

إضافة إلى بعض الوظائف مثل أمير السلاح ، أمير مجلس ، رأس نوبة ، الحاجب ، الخازندار ، أمير أخور ، الجمدار وجدت إلى جوار الوظائف الكبرى السابقة وظائف أخرى أمثال وظيفة الوالي الذي يقوم بعمل الشرطة في المدن مثل القاهرة والفسطاط ومثل صاحب العسس وهو يتولى مطافئ الحريق .

تنظيم البريد

اهتم السلطان بيبرس بالبريد اهتماماً عظيماً وأنفق على ذلك أموالاً كثيرة وأصبحت القلعة مركزاً للبريد وأصبح السلطان يتحكم في كل شئ عن طريق البريد حتى أن أخبار الشام تصل إلى السلطان مرتين في الأسبوع وكان خط البريد الذي يتولى أخبار الشام يبدأ من قلعة الجبل إلى دمياط إلى غزة ومنها إلى بلاد الشام وهناك خطوط أخرى متجهة إلى بلاد كثيرة إلى حمص ، حلب ، طرابلس أما في مصر فكانت ثلاثة خطوط للبريد أولها خط الوجه القبلي من قلعة الجبل إلى قوص ومن قوص إلى أسوان فبلاد النوبة وفرع آخر يتجه إلى عيذاب نظراً لأهمية هذا الميناء وثانيها خط خاص بالإسكندرية وثالثها خط دمياط وينقسم كل خط إلى عدة مراحل بحيث لا تزيد المسافة بين كل محطة ثمانية وعشرون ميلاً

وزودت كل محطة بموظفين وخيول وبالماء والطعام والعلف وكان يراعى فى موظف البريد الأمانة والذكاء وكانت إدارة البريد من اختصاص ديوان الانشاء .

غير أن عناية السلطان بيبرس لم تتوقف على البريد البرى ولكنه اهتم اهتماماً عظيماً بالبريد الجوى وأنشئت للحمام الزاجل محطات خاصة بها أبراج وأعاد السلطان اصلاح المحطات والأبراج التى كان قد هدمها المغول بالشام وروعى فى الرسائل التى يحملها الحمام أن تكتب على ورق خفيف وأن تكون مختصرة وإذا كانت الرسالة هامة كتبت من نسختين وأرسلت مع حمامتين .

وأصبحت قلعة الجبل مركزاً لأبراج الحمام وبذلك تمكن بيبرس من الإشراف على جميع أجزاء الدولة البعيدة بالبريد .

العناية بالأسطول

استطاع بيبرس أن ينشئ أسطولاً قوياً وكان الأسطول المصرى قد وصل إلى حالة من الضعف ومنع بيبرس الناس فى التصرف فى أخشاب السفن وأعاد رجال الأسطول إلى الخدمة فى الأسطول وأمر بيبرس ببناء السفن الحربية وأصبح يشرف بنفسه على دار الصناعة بجزيرة الروضة حتى أصبحت مصر تمتلك أربعين سفينة حربية .

وإضافة إلى إنشاء عدد من السفن فى دمياط والإسكندرية واستطاع السلطان بيبرس محاولة غزو جزيرة قبرص سنة ١٢٧٠م والتى انتهت بتحطيم الاسطول من أثر الرياح الشديدة ولكن بيبرس قام ببناء عدد أكبر من السفن التى تحطمت .

التجارة والزراعة والصناعة

زاد النشاط التجارى فى عصر الظاهر بيبرس وأصبحت مصر المركز التجارى الذى يقصده التجار من كل مكان حيث لم يبق طريق بعيد عن المغول غير طريق البحر الأحمر وأصبحت التجارة من عدن إلى موانئ مصر عيذاب والقصير وانتقالات محاصيل الشرق عن طريق النيل إلى دمياط والأسكندرية حيث يحصل

عليهـا التجار الأوربيـون ، وكثير من التجار الأوربيون أصـبح لكل منهم قنصل يشرف على شئون أفراد الجالية .

غير أن الصليبيين حاولوا فرض حصـار اقتصادى إذ كانت مصر تستورد بعض المواد الأساسـية لصناعـة السفن مـثل الحديد والأخشاب حيث أن مـلك أرغونة استجـاب إلى قطع العلاقات التجارية مع مصـر وأمر بحـظر تصدير الحـديد والأخشاب إلى مـصر ولكن الكثير من التجار أدركوا أن التجارة مع مـصر تعود عليهم بالثروة الكبيرة ولذلك ظلت التجارة المصدر الأول لثروة البلاد .

أما عن الزراعـة فقد حـرص الظاهر بيبرس على توفـير المياه اللازمـة للزراعة ودفعه هـذا إلى بناء الكثير من القناطر والجسـور ولذلك أنشأ قنطرة منية السـيراج وقنطرة القصير وقنطرة خليج الإسكندرية وقنطرة شبرامنت وقنطرة الظاهرية .

واهتم الظاهر بيبـرس بتطهيـر الترع وحفر الخـلجان فحفـر خليج الإسكندرية وبحر أشموم طناح وخليج سردوس وبحر دمياط .

وغير ذلك اهتم بيبرس فى زراعة بعـض المحاصيل ـ لم تكن فى مصر ـ وأقام الكثير من الجسور فى بلاد الشام .

وشهدت الصناعة فى عصر الظاهر بيبرس تطوراً كبيراً وذلك يدل على ما تركه من آثار مثل جامع السلطان بيبرس وغيره من الأعـمال الفنية وظهرت حرف كثيرة ونقابة تنظم شئون العاملين بها وشيخ لكل حرفة ونقابة تفصل فى مشكلاتهم .

سياسة بيبرس العمرانية

فى القاهرة امتد النشاط العمرانى على يد السلطان بيبرس ، وتركز النشاط فى قلعة الجبل حيث عمر دار الذهب وأنشأ برج الزاوية بجوار سور القلعة .

كما جدد بيـبرس جامع الأزهر وجامع الأنوار وأنشأ قبة عند مـقياس الروضة وجدد قـلعة الروضـة كما أن من أهـم منشآته المدرسـية الظاهرية التى بناهـا عام ١٢٦٤م وجعل لها مكتبة وبجوارها دار لتعليم الأيتام وكذلك بنى الجامع الظاهرى

وهو تحفة معمارية . وقام بإصلاح بناء الحرم النبوى كما أصلح قبة الصخرة فى بيت المقدس غير أن دمشق فازت بنصيب كبير من المنشآت فجدد قلعتها وبنى بها حماماً وجدد مشهد زين العابدين .

لذلك نجد عناية السلطان الظاهر بالحرب وطرد المغول والصليبيين لم تشغله عن العمران فى مصر والشام .

الحياة الاجتماعية

تعد القاهرة فى عهد بيبرس من أكبر مدن العالم حيث كثرت فيها الأسواق والخانات والأسبلة والحمامات واهتم الظاهر بيبرس بتجميل القاهرة ونظافتها وكنس شوارع المدينة ورشها بالمياه .

وأصدر الظاهر بيبرس أمراً بتجميع العاجزين وأصحاب العاهات ونقلهم إلى مدينة الفيوم ووفر لهم مصدر يكفيهم .

وانتشرت وسائل اللهو والتسلية وأهمها الحدائق والمتنزهات مثل الأزبكية وجزيرة الروضة وبولاق .

كما أحب الناس سماع الموسيقى والغناء وعرفت الكثير من الآلات الموسيقية مثل الطبول والكمنجة والقانون والعود والرق وغيرها من الآلات الموسيقية .

وانتشر خيال الظل كوسيلة للتسلية وأهم شخصية أسهمت فى تأليف تمثيليات خيال الظل كانت محمد بن دانيال .

وشارك السلطان فى الاحتفال بالأعياد مع الناس ومن الأعياد عيد الفطر والأضحى والمولد النبوى وكذلك الاحتفال بشهر رمضان وانتهز السلطان بيبرس شهر رمضان للتوسع فى أعمال البر وتوزيع الصدقات على المساكين . وكذلك الاحتفال بالأعياد غير الدينية مثل الاحتفال بوفاء النيل أو تولية السلاطين الجدد أو عودة سلطان منتصر .

أما عن دور المرأة فى هذا المجتمع فإن المرأة أخذت قسط أوفر فى الاحترام ووصل الأمر فى المشاركة إلى تسلم السلطة وذلك حينما تسلمت شجرة الدر عقب وفاة تورانشاه . كما شاركت فى الحياة العلمية والأدبية وكذلك فى النزول إلى الأسواق والمتنزهات .

بيبرس حياته وشخصيته

كان بيبرس طويل القامة أسمر اللون ، في عينيه زرقة وبإحدى عينيه نقطة صغيرة ، صوته جهورياً .

ومن أهم صفات بيبرس هي الشجاعة التى جاءت مشوبة بالعنف فى بعض الأحيان والقسوة أيضاً وهذه الشجاعة جعلت منه بطلاً وهى التى جعلت الجميع يحترم شخصية بيبرس ويعجبون به وقد ظهرت شجاعته في وقت كان المسلمون فى حاجة ماسة إلى زعيم شجاع حتى صار غازياً ومجاهداً وله فتوحات عديدة .

ولذلك نجد السلطان الظاهر بيبرس شديد الحسد لمن يوصف بالشجاعة غيره وقد دفعه ذلك إلى قتل الملك القاهر بسن المعظم عيسى الأيوبى الذى اشتهر بالشجاعة فى حروبه ضد سلاجقة الروم .

وكذلك فإن من صفات بيبرس البر وعمل الخير والإحسان حيث أنه كان يطعم فى كل يوم من أيام رمضان خمسة آلاف نفس ويكسو ستمائة كسوة كل عام وكان يتصدق بالكثير من الأموال على الفقراء .

غير أن بيبرس لجأ فى بعض الأحيان إلى الظلم وكثرة جباية الأموال من الرعية وكذلك كلف أهل دمشق بجباية ألف ألف درهم عندما خرج فى الحرب ضد سلاجقة الروم وإن كانت صفاته من شجاعة وإحسان وبر غلب على سيرته .

أما عن إقامة السلطان بيبرس وهى الإقامة فى قلعة الجبل مثل باقى السلاطين فى العصر الأيوبى والمملوكى وداخل القلعة تضم القصور ومنازل للمماليك تتسع لاثنى عشر ألف مملوك وأيضاً تضم القلعة دار الوزارة وديوان الجيش وبيت المال .

وتحتوى القلعة على المطبخ السلطانى الذى خصصت له ميزانية كبيرة ، حيث أنه فى أحد الأيام ذبح عـدد سبعـمائة من الدجـاج وعشرة آلاف رطل لحم يومـياً وقيمة التوابل التى تستهلك فى اليوم الواحد عشرين ألف درهم ، وهذا يدل على مدى ما امتازت به حياة المماليك من بذخ وتـرف ، وتولى الأمير الجاشنكير مهمة أن يأكل من كل طعام قبل السلطان خوفاً من أن يدس له السم فى أحد الأطعمة .

أما ملبس السلطان فهو من الثياب الفاخرة واعتاد أن يبدل ملابسه ثلاث مرات فى اليوم الواحد والرداء الذى يخلعه السلطان لا يلبسه مرة ثانية أبداً .

أمـا نوم السلطان فإذا نـام ظل حوله عـدد من الأمراء والمـاليك وتتبـدل نوبة الحراسة فى اليـوم الواحد خمس مرات ويزودوا بالطعـام والشراب حتى لا يغلب عليهم النعاس أثناء حراستهم السلطان .

وحريم السلطان له أربع زوجات ولكل زوجة قاعـة خاصة بها وزوجاته هم : ابنة حسـام الدين بركة خـان التترى ، ابنة سـيف الدين نوكاى التـترى ، ثم ابنة سيف الدين كراى التترى ، وابنة سيف نوغاى التترى .

وزوجة ابنه حسـام الدين كانت أم ولـده وولى عهده الملك سـعيد بركـة خان ولذلك كانت لها المكانة الكبرى .

رياضة بيـبرس هى الفروسيـة والصيد ولعب الكرة ورمى القـبق ولذلك أنشأ مطاعم خاصـة للطيور وكلاب الصـيد وأنشأ الميادين والساحات لممارسـة رياضة الفروسية ويبدأ الصيد بصيد الطير ثم يبدأ فى قناص الوحوش وبعد انتهاء السلطان من الصيد يبدأ الأمراء فى حرية الصيد .

وفى بعض الأحيان يقوم بيبرس بنزهة نيلية فكان يركب السفينة ويقصد جزيرة الروضة وكان بيـبرس يقوم ببعض المناورات البحـرية ويقوم أيضاً بالسباحـة لمسافة طويلة .

وفاة السلطان الظاهر بيبرس

مات السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧م فى دمشق وكان قد جاوز الخمسين من العمر وحكم سبعة عشرسنة وشهرين واثنى عشر يوماً .

ولكن هناك روايتان حول موت بيبرس :

الأولى : أنه أكثر من شرب القمز على أثر عودته من أنطاكية وهو شديد السرور والفرح وأحس بعد ذلك بقيئ واستخدم دواء من غير الرجوع إلى الطبيب أدى إلى مزيد من الإسهال والقيئ ولم ينجح علاج الأطباء .

الثانية : أن السلطان الظاهر بيبرس كان محباً ومولعاً بكلام المنجمون ومصدق لهم وعندما قال له المنجمون أن رجلاً جليل القدر سوف يموت بالسم بمدينة دمشق وزاد من مخاوف بيبرس أن القمر حدث له خسوف كلى وأخذ يصدق ما قال له المنجمون ولذلك رأى أن يصرف الموت إلى الملك القاهر بن المعظم عيسى الأيوبى الذى أظهر شجاعة نادرة فى حربه ضد سلاجقة الروم وأثنى الناس على شجاعته لذلك دبر السلطان قتل الملك القاهر بن المعظم عيسى الأيوبى عن طريق السم وجعل السم فى داخل ورقة فى جيبه ودعا الملك القاهر للشرب معه وكان للسلطان ثلاثة أقداح مختصة به مع ثلاثة سقاة وعندما قام الملك القاهر لقضاء حاجته وضع السلطان السم فى قدح وأمسكه بيده وعندما عاد الملك القاهر ناوله القدح وشرب جميع ما فى القدح ولكن السلطان قام هو الآخر لقضاء حاجته فأخذ الساقى القدح من الملك القاهر وملأه بالشراب فلما عاد السلطان الظاهر شرب القدح وهو لايعلم شيئ عن بقايا السم فى القدح حتى مات بعد ثلاثة عشر يوماً من شرب الشراب السام والغالب أن تكون هذه الرواية هى الصحيحة .



جوهر الصقلى

قائد المعز الدين الله الفاطمى

جوهر الصقلى

جـوهر الصقلى هو قـائد المعز لدين الله الـفاطمى الذى أثر فى تاريخ العـالم الإسلامى على وجه العموم ، وفى تاريخ مصـر الإسلامية على وجه الخصوص . فهو الذى فتح بلاد المغرب ومصر ، وهيأ الأمر لدولة الفاطميين فى الشرق .

وجوهر الصقلى لا يقل أهمية عن حكام وأمراء مصر ومشاهيرها أمثال عمرو بن العاص وأحمد بن طولون وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس .

قد قام بدور هام وخطير فى تاريخ مصر ، وزاد من أهميتها الإسلامية . فهو الذى أسس مدينة القاهرة بعد فتح مصر ، والتى لا تزال عاصمة مصر إلى الآن . وهو الذى بنى الجامع الأزهر الذى صار أقـدم جامعة إسلاميـةفى العالـم الإسلامى كله ، وجعل مصر مركز الثقل الإسلامى ، وفتح الشام والكثير من البلاد ، وصد الغارات عن مصر .

ولد جوهر الصـقلى بجزيرة صقليـة ، وهى إحدى جزر الدولة الرومـانية فى ذلك الوقت ، وقد ظلت صقلية تحت حكم الرومان إلى أن فتحها أسد بن الفرات قاضى القـيروان سنة ٨٢٧م وكان ذلك فى عهـد المأمون وبعد فـتحها أسلم أكـثر أهلها وشـيد المسلمـون الكثير من المـساجد بهـا . حتى أصبح عـددها يزيد على ثلاثمائة مـسجد ، قـد أدى ذلك إلى أن انتشـر الإسلام فى الجزيرة ، وأصـبحت اللغة العـربية هى اللغة الرسمية بها ، مما ساعـد على ترجمة مؤلفـات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، وأصبح التخـاطب باللغة العربية أمراً عادياً ، وقد أثر هذا الجو الإسلامى والـلغة العربية تأثيـراً مباشراً فى نشأة جـوهر الصقلى ، الذى عـرف عـنه حسن السياسـة والمهارة فى الشئون العسكرية . مما جعل الخليـفة معد أبو تميم المعز لدين الله الفاطمى يختاره من ضمن رجاله .

أما عن ميـلاد جوهر الصقلى قد اختلف عـليه المؤرخون ، والأرجح أنه ولد

بين سنة ٢٩٨ و ٣٠٠هـ ومات سنة ٣٨١هـ ويرجح المؤرخون أنه ولد مسلماً بسبب دخول الإسلام إلى الجزيرة سنة ٢١٢هـ ويرجحون أيضاً أن أباه قد دخل فى الإسلام الذى كان منتشراً فى البلاد .

وكان جوهر يكنى بأبى عبد الله ، وله ولد يدعى الحسين ، ويلقب الحسين بالقائد ابن القائد ، وذلك لموهبته وقدرته الحربية .

جوهر الصقلي
والمعز لدين الله الفاطمي

بعد دخول الإسلام إلى جزيرة صقلية انضم أهل الجزيرة إلى الفاطميين فى حروبهم ، وأخذ جوهر الصقلى يتدرج فى الوظائف والمناصب إلى أن أصبح كاتب المعز لدين الله سنة ٣٤١هـ ولقب بـ « جوهر الكاتب » وهذه الثقة من الخليفة المعز الذى عرف بثاقب نظره وفطنته تدل على ما امتاز به جوهر من المواهب والمزايا التى جعلته يبز غيره ويتبوأ تلك المكانة العليا . فقد كانت وظيفته إحدى الوظائف العليا التى يكمن فيها سر الخليفة وسر الدولة ، وقد أثبت جدارته وكفاءته مما جعله المعز يوليه الوزارة سنة ٣٤٧هـ ويرسل به لفتح باقى بلاد المغرب . ففتح الله على يديه ، واستولى على « تاهرت » وأخذت المدن تتهاوى تحت ضربات سيفه ، وسنابك خيلة حتى فتح كل بلاد المغرب الأقصى إلى أن وصل إلى ساحل المحيط الأطلسى .

واستطاع فتح فاس وقبض على صاحبها وصاحب سجلماسة ، وأرسلهما مقيدين فى قفصين إلى الخليفة ، وبذلك استطاع إتمام الفتوحات التى بدأها أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٩١هـ وكانت مصر تمثل أملا بالنسبة للمعز . إذ يعتبرها قلب العالم الإسلامى . لذا اختار جوهراً لقيادة الحملة لفتح مصر ، وخرج المعز لوداعه .

فتح مصر

كان تقدير المعز أن من يستولى على مصر يستولى تلقائياً على الشام والحجاز الخاضعين لسلطان الأخشيديين المتولين أمر مصر ، والمسيطرين عليها وكان الفاطميون يطمعون فى اتخاذ مصر مركزاً لانطلاقهم للسيطرة على البلاد الإسلامية فى الشرق .

وقدظل الفاطميون يرسلون الحملات البرية والبحرية إلى مصر فى عهد المهدى الفاطمى وابنه القائم وقد جهزوا حملات ثلاث فشلت كلها بسبب قوة جيوش مصر ولم تسقط مصر فى أيديهم ، لذا انقطعت الحملات على مصر طوال عهد المنصور ثالث خلفاء الفاطميين.

ولكن المعز رابع الخلفاء الفاطميين بدأ المحاولات من جديد لفتح مصر فأرسل جيشاً لغزوها وصل إلى الواحات ، إلا أن كافور الإخشيدى استطاع صده، ولكن حدثت خيانة الوزير يعقوب بن كلس . الذى اتصل بالمعز ، وبين له وجوه الضعف فى مصر ، وحثه على غزوها ، وضمها إلى أملاكه وكان يعقوب بن كلس يهودياً ولد فى بغداد ، وانتقل إلى مصر مع أبيه ، وكان كافور قد عينه فى ديوانه الخاص، ثم أسلم يعقوب فزاد قدره عند كافور ولكن الوزير جعفر بن الفرات حبسه عند وفاة كافور ، ولكنه عاد وأفرج عنه بعد تدخل بعض رجال الدولة . لكن يعقوب خاف من الوزير جعفر ، ولم يعد يأمن على نفسه البقاء فى مصر . فهرب وسار إلى المعز فى بلاد المغرب وزين له غزو مصر .

فأخذ المعز يجهز لحملة قوية . يسر لها كل سبل النجاح ، ومن بينها إنشاء الطرق ، وحفر عدداً من الآبار فى الطريق إلى مصر ، وجهز جيشاً كبيراً يزيد على مائة ألف مقاتل ، وأنفق على الحملة أموالا طائلة ، ويكفى القول بأن جملة ما أنفقه من العطايا على الجند بلغ أربعة وعشرون مليون دينار ثم استعرض المعز

قواده ، ليختار منهم قائداً يمكن أن يحرز النصر ، فلم يجد أكفأ من جوهر الصقلي المجرب في فتوحات المغرب ، وبسط سلطان الفاطميين عليها .

وقد خرج المعز لدين الله بنفسه لوداع الجيوش بقيادة جوهر ، وقال كلمة تظهر مدى ثقته في قائده واستشرافه للنصر على يديه : « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقهر الدنيا » .

خرج جوهر من القيروان ، وهي احدى مدن بلاد المغرب في سنة ٣٥٨هـ وقد زوده المعز بأموال طائلة للإنفاق على الجند بلغت ألف ومائة صندوق من الأموال ، وسار في جيش يتجاوز المائة ألف مقاتل ، ومعه من الخيل ما يزيد بكثير عن عدد الجند .

وصل جوهر الصقلي إلى برقة ، فنزل بها ، وبعد فترة استجمام قصيرة استأنف السير إلى الإسكندرية . التي فتحت أبوابها بدون مقاومة . وهنا ظهرت حنكة جوهر الحكيم ، فقد أصدر أوامره للجند بعدم سلب أو نهب المدينة ، وقد أطاع الجند ، لأنه أغدق عليهم من أموال المعز ، وقدم لهم كثيراً من العطايا والأرزاق ، وعلى أثر سقوط الإسكندرية عقد الوزير جعفر بن الفرات اجتماعاً مع كبار الدولة للنظر في استيلاء جوهر على الإسكندرية . فاجمعوا الرأى على طلب الصلح . فوافق جعفر ، وأناب أبا جعفر مسلم ، وهو من الأشراف العلويين ، وأرسل معه جماعة من أهل الرأى والتقى اعضاء الوفد مع جوهر في مدينة تروجة قرب الإسكندرية ، وقبل جوهر شروط الصلح ، وأمن المصريين على أرواحهم وأموالهم .

وبذلك دخل جوهر مصر بغير قتال ، كما بشره المعز عند وداعه ، وكان أول ما فعله هو التعهد بنشر العدل وحماية مصر ضد هجمات البيزنطيين ، التي

امتدت إلى بلاد الشام . التى كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ، وكان من الطبيعى أن يمتد الخطر إلى مصر بعد وفاة كافور ، وضعف الدولة الإخشيدية .

كما تعهد جوهر بترك الحرية للمصريين بإقامة شعائرهم الدينية ، وعمل على إصلاح المساجد واصلاح الجسور . وكانت تعهدات وتصريحات جوهر تصدر فى الاسكندرية ، ولم يكن وصل إلى العاصمة بعد . لكن الإخشيديين صمموا على قتال الفاطميين وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة الجيوش . فنزل إلى الجيزة لكن جوهراً سبقه ، واستولى على المخاضة التى بمنية شلقان . حيث يسهل عبور قواته للنيل ، وحث جوهر قائده جعفر بن فلاح على عبور النيل مع المغاربة ، وقال له: لهذا اليوم أرادك المعز ، فتحمس جعفر وعبر النهر وتبعه المغاربة ، والتقى بالإخشيديين ودارت معركة كان الانتصار فيها للفاطميين ، وقتل عدد كبير من المصريين ، وبذلك تم فتح مصر بسهولة ، بفضل جوهر صاحب المهارة الحربية .

ونظراً لأن الإخشيديين تصدوا لجيش جوهر وقاتلوه توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معامل سيئة . لكن جوهراً لم يكن قائداً فاتحاً وحسب ، وإنما كان مكلفاً بإرساء قواعد خلافة تمتد مع الزمن ، لذلك ألان الجانب لهم ليتألفهم ، ويحبب إليهم دعوة الفاطميين ، واتخذ خطوات إيجابية فى هذا الصدد ، منها أنه أذاع على الجند بياناً بأن يمتنعوا عن الإتيان بأى عمل من أعمال العنف والنهب ، وأن المصريين لهم الأمان على أرواحهم وأموالهم .

وكان لابد من تأمين جوهر نفسياً بأن المصريين لن يقوموا بأعمال مضادة تجاهه . لذا خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات ومعه الأشراف والقضاة والتجار إلى لقاء جوهر عند الجيزة ، وقبلوا الأرض بين يديه ـ عدا أبو جعفر مسلم ، والوزير جعفر بن الفرات ، وعادوا إلى الفسطاط بعد أن أدخلوا فى روع جوهر الطمأنينة .

وطارت أخبار الفتح إلى المعز . فابتهج وغمره السرور ، وجاءته التهانى من جميع الأمراء والأعيان والشعراء الذين أفرطوا فى المديح . فها هو الشاعر بن هانى يلقى قصيدة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر	فقل لبني العباس قد قضي الأمر
قد جاوز الإسكندرية جوهر	تصاحبه البشري ويقدمه النصر

وبدخول جوهر بجيشه مصر انتهى سلطان الإخشيديين عن مصر والعباسيين أيضاً . وبدأ عهد الدولة الفاطمية التى ترامت أطرافها ، وأصبح سلطانها يمتد من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر .

فتح سوريا

لم يكن فتح مصر نهاية المطاف بالنسبة للفاطميين ، وإنما كان قاعدة ارتكاز للانطلاق شرقاً لانتزاع الشام والحجاز ، وإسقاط الخليفة العباسى إن أمكن ، والاستيلاء على بغداد عاصمة الدولة العباسية .

ولأن جوهر كان ذا حنكة عسكرية فذة ، ومواهب سياسية خارقة ، فقد أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد إبعاد جعفر بن فلاح منافسه الخطير فى مصر . خاصة وأن جعفر كان يرى فى نفسه أنه أفضل من جوهر ، وأن له الحق فى مصر ، لذا خطط لإبعاده عن مصر ، دون أن يتهم بنفيه أو التخلص منه ، وكان أن عقد له اللواء على جيش كبير، ووجهه إلى الشام وكانت بلاد الشام فى ذلك الوقت خاضعة للدولة الإخشيدية وفى المقابل أعد الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد والى الرملة ودمشق جيشاً لملاقاة جعفر وجيش الفاطميين ، لكن جعفر انتصر على جيش الحسن بن عبيد الله فى الرملة وأسره وأرسله إلى الفسطاط وحبس بها .

ثم انتقل جعفر إلى طبرية لمحاربه فاتك والى طبرية فحالفه النصر واستولى

عليها وقتل الوالى فاتك ، وعلم أهل دمشق بسقوط الرملة وطبرية فلم يتصدوا لجيش الفاطميين بقيادة جعفر ، وإنما أوفدوا جماعة من كبار دمشق إلى جعفر الذى لم يحسن لقاءهم ، واتضح أن جعفراً يفتقد الحنكة السياسية لذلك لم يحسن السياسة وحسن المعاملة مع أهل دمشق ، وهو بهذا يختلف عن جوهر الصقلى فى معاملة أهل مصر . لذا لم يكن غريباً أن يشتد سخط أهل دمشق على جعفر وعلى جنده وأن يحملوا السلاح للقتال ضد جعفر وجنوده، ومع ذلك تمكن منهم جعفر واستطاع أن يدخل المدينة ويستولى عليها فى سنة ٣٥٩هـ .

ولما خرج بعض أهل الحكمة فى دمشق لمقابلة جعفر يطلبون منه إصلاح مدينة دمشق حدث خطأ آخر . إذ إن جنوده قبضوا عليهم وسلبوهم . فثار أهل دمشق على تلك المعاملة السيئة ، ولكن قوة جعفر أخمدت هذه الثورة .

لكن لأنها اخمدت بالقوة ، وليس بالتفاوض كما فعل جوهر مع أهل مصر ظلت النفوس معبأة تتحين الفرصة للانتقام ، ودخل جعفر ورجاله مسجد دمشق لصلاة الجمعة ، وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، لذا كان العنف متبادلاً بين جند جعفر وأهل دمشق ، فالجند نهبوا الناس بالمدينة فقتل أهل دمشق الكثيرين منهم ، ولما طلب شيوخ المدينة الأمان من جعفر وأعلنوا استياءهم مما حدث قال لهم جعفر . دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم ، وهددهم باستعمال العنف والقسوة مع أهل المدينة حتى جمعوا له الأموال ودفعوا ديه من قتل من رجال أمير المؤمنين ، وأجبر جعفر خطباء دمشق على حذف اسم الخليفة العباسى من خطبة الجمعة ، والدعاء للخليفة الفاطمى .

صعوبات تواجه

الفاطميين فى سوريا

افتقد جعفر لكياسة السياسيين فى فتوحاته بالشام ، وغلب اندفاعه حكمته ، وقد دفع ثمن ذلك غاليا ، من عمره وجنده ، وتسبب فى ضياع وفقد ما فتحه من بلاد الشام . والسبب عنفه وقسوته واستهتار جنده بأرواح أهل دمشق الذين استنجدوا بالقرامطة وأفتكين للخلاص من المغاربة وجعفر .

وكانت دمشق قبل الاستيلاء عليها تدفع جزية لزعيم القرامطة الحسن بن أحمد قدرها ثلاثمسائة ألف دينار ، لكن الفاطميين قطعوا الجزية بعد استيلائهم على المدينة فلم يرضخ زعيم القرامطة للأمر الواقع ، وأراد إكراه الفاطميين على دفع الجزية وحاول عقد حلف مع الخليفة العباسى فى بغداد . لكن الخليفة رفض ، فاتجه إلى التحالف مع بنى بويه فى العراق فرفضوا أيضاً .

فلم يبق أمامه إلا الاتجاه للحمدانيين فى حلب ، وفى هذه المرة نجح ووافق أمير الرحبة من الحمدانيين على التحالف معه ، وانضم إليهما بعض القبائل العربية .

والتقى جيش الحسن القرمطى مع جيش جعفر فى الذكة ، وهى بلدة على مقربة من دمشق .

وهنا عاودت جعفر حماقاته فاستهان بالحسن القرمطى ، وكانت النتيجة هزيمة منكره كان هو ضمن ضحاياها ، فقد قتل ، وقتل معه كثير من الجند ، وبذلك انتهت حياة جعفر قائد الفاطميين الذى نشر سلطان الفاطميين فى سوريا .

ويرجع قتل جعفر إلى ما ارتكبه من الأخطاء وسوء التدبير لدرجة أنه كان لا يكاتب جوهر بأنباء الفتوحات فى بلاد الشام ، وإنما يكاتب المعز ، وقد لقنه المعز

درساً فى آداب السياسة ، ذلك أنه عندما وصلت كتب جعفر رفض أن يفضها ، وأمر بردها إليه وأمره بمكاتبة جوهر القائد المباشر له .

وهكذا استولى الحسن القرمطى الملقب بالأعصم على دمشق .

أبو منصور أفتكين

كان أبو المنصور أفتكين غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه . اشتهر بالشجاعة والكفاية الحربية وقد سار إلى الرحبة ، فخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى عامل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى على الرحبة ، وكان هدف أفتكين إقامة الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، وقد أمده أبو المعالى بن حمدان بجيش كبير لمعاونته ضد الفاطميين ، وكان الطريق ممهداً أمام أفتكين بعد هزيمة جعفر وجنوده . لذلك دخل هو والقرامطة دمشق بدون حرب ، وفر ظالم ابن موهوب العقيلى أمام أفتكين فلم يتوقف أفتكين ، وإنما أخذ يلتهم مدن الشام والرملة ، وهاجم يافا ، واكتسح ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا .

وفى صيدا تصدى له ظالم بن موهوب العقيلى وابن الشيخ والى صيدا من قبل المعز . فدار قتال رهيب قتل فيه من الفريقين حوالى أربعة آلاف رجل ، وانتهى الأمر بهزيمة ابن الشيخ ، وتراجع ظالم إلى مدينة صور . ثم سار إلى مدينة عكا ، وهكذا ازداد الخطر ، واستعصى الأمر على الفاطميين حتى تم القضاء على القرامطة فى عهد العزيز الفاطمى ، وعلى يد جوهر الصقلى .

جوهر يصد غارات القرامطة عن مصر

اشتد خطر القرامطة على الفاطميين ، لأنهم كانوا أكثر حمقاً من جعفر ، ولم يحسنوا السياسة فى المدن التى فتحوها ، وإنما أساءوا معاملة أهلها ، وانقلبوا

إلى الإغارة على المدن العباسية ودمروها ، وقطعوا طريق الحج ، وسلبوا الحجيج فاستشعر جوهر الخطر تجاههم ، وبدأ يحصن القاهرة بعد أن تطلع القرامطة لمهاجمتها .

ولجأ جوهر إلى بناء وتأسيس القاهرة ، وبنى حولها سوراً منيعاً لحمايتها من هجمات القرامطة ، وقد صح ما توقعه جوهر ، فقد سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، وانضم إليه الكثير من الإخشيديين ، ثم اتجه إلى مصر ، ودخل مدينة القلزم ، وهى السويس الآن ، ثم دخل إلى الفرما « بورسعيد » واستمر فى زحفه حتى وصل إلى عين شمس ، وأصبح على مرمى حجر من القاهرة .

لكن ذلك لم يفت فى عضد جوهر ، الذى بدا رابط الجأش ، واستعد لقتال الحسن بن أحمد ، ووزع السلاح على المصريين والمغاربة ، وحفر خندقاً جعل عليه . بابين من الحديد ، وبدأت المعركة بين الطرفين ، وقتل عدد كبير من الفريقين وانتهت الحرب بهزيمة القرامطة ، وتقهقرهم إلى القلزم (السويس) وبذلك استطاع جوهر تجنيب البلاد الويلات والمحن .

واستولى المصريون على ما تركه القرامطة ولا شك أن اجتذاب جوهر للمصريين ، وتحببه إليهم هو الذى دفعهم إلى حمل السلاح والقتال بجانب الفاطميين مما كان له عظيم الأثر فى رد القرامطة وقد استشعر المعز على البعد اشتداد خطر القرامطة ، وارسل جيشاً من القيروان بقيادة أبى محمد الحسين بن عمار حتى يزيد من قوة جوهر الصقلى .

وكانت خسارة القرامطة فادحة . أدت إلى رجوع أسطولهم من النيل بعد أن خسر عدداً كبيراً من الجند ، بين أسير وقتيل ، وعاد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى دمشق .

وعندما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢هـ رأى أن خطر القرامطة لا يزال يهدد

مصر . فأرسل إلى الحسن بن أحمد القرمطى كتاباً بدأه بالإعذار ، وانتهى بالإنذار بعد أن وصف فيه الحسن بأنه غادر وخائن ، وأن عليه أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب فى حروبه مع جعفر .

وقد رد الحسن على الكتاب الذى أرسه الخليفة الفاطمى :

« لقد تسلمت كتابك المملوء بالألفاظ ، الخالى من المعانى ، وسيأتيك جوابى» وكان الرد إغارة القرامطة مرة ثانية على عين شمس بعد أن عاونهم أنصار الإخشيديين .

وكان لابد من استخدام القوة الضاربة للفاطميين ، وتدخل الخليفة المعز بنفسه وقد تدخل بالفعل عندما أرسل ابنه عبد الله إلى الوجه البحرى على رأس جيش كبير استطاع هزيمة القرامطة فى العديد من الوقائع .

ثم دخلت السياسة والخديعة فى الحرب ، وقد استطاع الخليفة الفاطمى أن يلجأ إلى سلاح المال ، ويرشو زعيم قبيلة بنى طى ، وكانت هذه القبيلة من أقوى عناصر جيش حسن القرمطى ، وقد اغراها المعز لدين الله الفاطمى بمائة ألف دينار ، ولما لم يكن هناك من المال ما يكفى لجأ المعز للخديعة مرة أخرى حينما أمر بضرب نقود زائفة من الرصاص ،عليها طبقة من الذهب .

ثم لجأ للخديعة مرة ثالثة حينما أمر بوضع المال فى أكياس على أن يوضع فى أعلاها قليل من الدنانير من الذهب الخالص ، والباقى من الدنانير المزيفة ، وعندما اشتدت الحرب بين الطرفين انصرفت بنو طى وزعيمها عن الحرب فأدى ذلك إلى تخلخل وضعف القوة التى بقيت مع الحسن ، وقتل من أتباعه أكثر من ألف وخمسمائة ، ثم بدأ العد التنازلى لانهيار قوة القرامطة . مما أدى إلى ارتدادهم عن مصر .

الدعوة الفاطمية

لم يكن هدف الفاطميين من دخولهم مصر هدفاً عسكرياً أو توسعاً إقليمياً بقدر ما كان هدفاً دينياً . قصدوا به نشر دعوتهم الشيعية ، ولأن مصر مفتاح الشرق بالنسبة لهم كمغاربة . كان التركيز على نشر دعوتهم بها ، واتخاذها قصبة ملكهم لما اشتهرت به من نماء وثروة ، وكان ذلك سر محاولة غزو جيوش المهدى الفاطمى مصر لمرات متتالية من سنة ٣٠١هـ ، وسنة ٣٠٧ إلى سنة ٣٠٩هـ ، وسنة ٣٢١ ولم تنقطع المحاولات حتى عهد القائم بن المهدى سنة ٣٢٤هـ .

لأن امتلاك مصر يؤدى إلى نشر عقائد المذهب الفاطمى فى الشام والحجاز .

ولما تم فتح مصر سنة ٣٥٨هـ أخذ جوهر الصقلى فى الدعوة للخليفة الفاطمى ولأهل بيته من العلويين ، وكان أغلب المصريين يعتنق المذهب السنى ، وما إن انتهى جوهر من أساس مدينة القاهرة حتى أمر بإلغاء الدعاء فى خطبة الجمعة للعباسيين ، وإقامتها للمعز الفاطمى ، ولكى يلغى كل أثر للعباسيين أمر أن يضرب النقد باسم الخليفة الفاطمى ، ومنع لبس السواد شعار العباسيين وقرر لبس الملابس البيضاء .

وقد بدأت الدعوة الفاطمية فى جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون والجامع الأزهر ، وهى المساجد الجامعة التى تقام فيها خطبة الجمعة فى ذلك الوقت وبالتدريج أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية الشيعية ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة ، وكان الهدف الأول لسياسة الفاطميين هو جذب الناس إلى مذهبهم ، وتعاليمه .

وقد بدأت الخطبة فى جامع عمرو بن العاص بعد استيلاء جوهر على الفسطاط ، وفيها ذكر اسم المعز بدلاً من اسم الخليفة العباسى ، ثم انشئ الأزهر وأصبح مركزاً لبث عقائد المذهب الفاطمى .

ولما وصل المعز إلى مصر قام بنفسه بنشر هذه الدعوة ووضع لها تخطيطاً يتضمن ديواناً هو أشبه بوزارة الأوقاف اليوم . وخصص لذلك الديوان مكاناً فى قصره الضخم ، ويضم داعى الدعاة ومساعديه ، وهم اثنى عشر نقيباً ، وقد زوردهم المعز بكتب الدعوة ، وكان قصره يضم مجموعة كبيرة من تلك الكتب التى خصصت لنشر عقائد الفاطميين .

النظام الإدارى

اتبع الفاطميون سياسة الإغراء مع كبار موظفى الإدارة العليا فى مصر، وكان هذا الإغراء هو الوظيفة الإدارية ، وثمنها كان الدخول فى المذهب الفاطمى الشيعى. ولكى يسيل جوهر « الداهية » لعاب المصريين لذلك المذهب جعل كل الوظائف العليا بيد المغاربة . ومن أراد أن يبقى فى منصبه من المصريين كان عليه أن يعتنق المذهب الفاطمى ، ومن ثبت أنه لم يتشيع يعزل من منصبه .

ولتحقيق هذا الغرض لم يدع جوهر عملاً إلا جعل فيه مغربياً شريكاً لمن فيه، وقد نجحت سياسته بحيث أصبحت أمور الدولة فى يد المغاربة الشيعيين فى سنة ٣٧٩هـ وتحقق ما أراد جوهر ، فقد انتشر المذهب الشيعى فى مصر بين الموظفين خوفاً من الاضطهاد ، أو رغبة فى الوظائف العليا .

وأهم الأعمال الإدارية التى تقلدها المغاربة هى الوزارة والقضاء وجباية الخراج وكان يتولى جباية الخراج فى مصر على بن يحيى بن العرمرم وقد أبقاه جوهر فى وظيفته . ولكنه عاد وأشرك معه رجاء بن صولاب المغربى .

ولما كان الخراج هو قوام وعصب الدولة ، لأنه يمثل سيولتها النقدية ، فإن المعز اهتم به اهتماماً كبيراً ، وأسند إشرافه ليعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن وقد جبى جوهر الصقلى خراج مصر فى السنة الأولى فكان ٣٤٠٠٠٠٠ دينار .

لكن بعد وصول المعز مصر رأى اتباع التخطيط والدراسة فى جباية الخراج

وعهد إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام ضرائبي جديد . مع نظام جديد لتقدير وتحديد الضرائب على الأملاك . وعندما فتح جوهر مصر وجد أن أبا الفضل جعفر يتقلد منصب الوزارة منذ فترة طويلة . فقرر بقاءه فى منصبه .

لكن جوهراً لم يتركه بعيداً عن عينه ، وإنما وضعه تحت المراقبة الدائمة . عندما عين معه خادماً فى داره يلازمه فى كل شئ ويراقبه ، مما أدى إلى ضعف نفوذ الوزير إلى حد كبير وتحقق ما هدف إليه جوهر بعد ما أحصى الخادم على الوزير أنفاسه . فانتهز فرصة وصول المعز إلى مصر وطلب إعفاءه من منصبه ، فطلب منه المعز أن يبقى بجواره فى الأمور الهامة .

وكان طبيعياً أن يتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين بعد ما عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية ، والمدنية ، وبذلك ظهرت قوى جديدة أثرت على بريق جوهر ، خاصة وأن ابن كلس قد أظهر ثقة كبيرة فى جعفر بن الفرات . الذى لم يفقد حظوته لدى الفاطميين حيث تولى الوزارة مرة أخرى فى عهد الخليفة العزيز بالله سنة كاملة وبهذا يكون ابن الفرات قد تقلد الوزارة فى عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين .

وإذا كان المعز قد ابقى على ابن الفرات مستشاراً . فإنه أبقى على قاضى القضاة أبو الطاهر امتداداً وإقرارا لقرار قائده جوهر حينما أبقى عليه ، حتى لا يجر عليه غضب المصريين . وسبب إبقاء المعز عليه أنه عندما وصل مصر خرج الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم ، وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر فإنه ظل راكباً حتى قرب منه المعز فترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض فسأل المعز عنه ، فأخبره أحد حجابه أنه قاضى مصر ، وهنا سأله المعز : « كم رأيت من خليفة ؟ فأجاب على الفور « ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » فأعجب به الخليفة وأقره فى منصب قاضى القضاة لفطنته ـ

لأن .ـر يعلم أنه رأى خلفاء قبله من العباسيين . لكن كان هناك مأزق ينتظره ، لأن لمعز لا يقبل بغير الإفتاء على المذهب الشيعى ، فكان ذلك شاقاً على أبى طاهر الذى اعتاد الإفتاء على المذهب السنى ، لذا كان طبيعياً أن يشرك معه المعز قاضياً مغربياً هو أبو سعيد بن أبى ثوبان وكان طبيعياً أن يسحب البساط من تحت قدمى أبى طاهر بالتدريج مع زيادة نفوذ أبى سعيد . حيث تولى المظالم الخاصة بالمغاربة ، ثم أسند إليه بعد ذلك القضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، ثم تولى النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والإسكندرية .

ومع تطور الأمور أصبح القضاء مغربياً بحتاً . حيث عين المعز قاضياً مغربياً آخر هو على بن أبى حنيفة النعمان . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء فى جامع عمرو بن العاص ، وأبو الطاهر فى الجامع الأزهر .

إلى أن استقل على بن أبى حنيفة النعمان بالقضاء عامة على أثر شيخوخة أبى الطاهر .

ولما كانت سياسة الفاطميين صبغ مصر بمذهبهم تماماً فقد أمعنوا فى تعيين المغاربة فى الوظائف على طريقة ، أهل الثقة بدلاً من أهل الخبرة . لذا فإن جوهرا عند فتحه لمصر وجد المحتسب سنيا، فأقاله وعين رجلاً من المغاربة بدلاً منه ، ووسع اختصاصاته . بحيث أصبح المحتسب له الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، ثم أصبح له نواب ينوبون عنه فى البلدان ، فكانوا يلاحظون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويلزمون أصحاب السفن بألا تحمل أكثر من حمولتها وأيضاً يمنع المحتسب معلمى الكتاب من ضرب الأطفال ضرباً شديداً .

ويبدو أن بعض المغاربة لم يفهم سياسة جوهر التى ترمى إلى إقامة عرش فاطمى موطد الدعائم . وظنوا أنهم غزاة ، وأن مصر غنيمة ، فبدأوا يعتدون على

المصريين ويقومون بأعمال النهب ويثيرون الشغب ، ولكن جوهراً انطلاقاً من مهمته الفاطمية أخذهم بالشدة والعنف ، وضرب على أيديهم بقوة ، بل وأمر بقتل جماعة منهم .

وبذلك قتل الفتنة في مهدها ، وأخمد نيرانها . التى لو تركت لقضت على الدولة الفاطمية فى مهدها ـ على الأقل فى مصر .

منشآت جوهر الصقلى

تأسيس مدينة القاهرة :

كانت الإسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الإسلامي ، وقد أراد عمرو بن العاص عندما فتح مصر أن يبقى عليها عاصمة للبلاد كما هى ، ولكن عمر بن الخطاب أشار عليه باتخاذ مدينة غير الإسكندرية .

فاتخذ عمرو الفسطاط عاصمة جديدة ، وكانت تقع في الفضاء الذى عسكر فيه عمرو بن العاص وجنده عند حصار حصن بابليون ، وسميت بالفسطاط . لأن عمرو بن العاص عندما أراد الخروج إلى الإسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه «خيمته» فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر بإبقائه كما هو حتى تفرخ اليمامة وعندما رجع المسلمون من الإسكندرية سألوا عمرو عن المكان الذى ينزلون فيه . فقال : « الفسطاط » .

وهنا قام عمرو بتأسيس مدينة الفسطاط . بعد ما قسم الأرض الخلاء قطعاً، وأعطى لكل قبيلة قطعة بنت فيها وأمر ببناء أول جامع فى مصر الذى سمى الجامع العتيق ، ثم أطلق عليه جامع عمرو .

وفى أيام الدولة العباسية رأى واليهم أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره فأسس مدينة العسكر . فانتقلت إليها دار الإمارة والإدارة والشرطة . وأصبحت هى العاصمة ، ومع ازدهار العمارة فى العسكر ، وإقبال الناس على السكنى بها رأى

أحمد بن طولون أن العسكر ضاقت بجنده ، فاختار المنطقة الواقعة شمال الفسطاط إلى جبل يشكر وسفح المقطم ، وشيد فيها دار الإمارة وجامعاً كبيراً ، وقد عرفت هذه المنطقة باسم « القطائع » ثم بنى الأمراء والقواد والجند والناس فعمرت وقد قدرت مساحتها بميل فى ميل ، وأصبحت العاصمة ، وجاء من بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجملها وزاد فى قصر أبيه .

وتعتبر القاهرة هى رابع عاصمة مصرية إسلامية تأسست سنة ٣٥٨هـ على أثر دخول جيوش المعز لدين الله ، وتحت قيادة جوهر الصقلى ، وقد بناها بناء على أوامر المعز الذى لم ينتقل إليها إلا بعد الفراغ من بنائها . وفى بداية بنائها دخل جوهر مدينة الفسطاط ، وعسكر فى الفضاء الواقع شمالها ، ثم وضع أساس المدينة ، وأساس قصر المعز لدين الله الفاطمى .

وقد أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للفاطميين ، ومركزا لنشر دعوتهم وعندما فرغ من بناء قصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أقام حوله سوراً .

وسمى المدينة المنصورية نسبة إلى المنصور والد المعز حتى قدم المعز وسماها القاهرة .

ويقول المقريزى : (إن القائد جوهرا لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس . بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً . فاختاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال وإذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة. فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التى فيها الأجراس . فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون : القاهر فى الطالع .

فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه ، ويقال إن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها « القاهرة » .

ولكن هناك رواية أخرى هى قول المعز نفسة حين أرسل جوهر الصقلى لفتح مصر وخرج فى وداعه فقال المعز « والله لو خرج جوهر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تقهر الدنيا » .

وتقع القاهرة شمال الفسطاط ، وتشمل القاهرة أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق ، وبعد بناء القاهرة أراد جوهر تحصينها ضد الغزاة . فأحاطها بسور كبير من الطوب اللبن ، وقد بنى هذا السور ثلاث مرات . الأولى فى عهد القائد جوهر سنة ٣٥٨هـ والثانية فى سنة ٤٨٠هـ فى خلافة المستنصر ، والثالثة فى عهد الملك الناصر صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ .

وأطلق اسم القاهرة على الجزء الواقع بين الأسوار والجزء الواقع خارج القاهرة سمى بظاهر القاهرة .

وقد وضع جوهر أساس قصر مولاه المعز سنة ٣٥٨هـ ويقع القصر شرقى سور المدينة ، وقد أطلق عليه القصر الكبير الشرقى ، ويتكون من حوالى أربعة آلاف حجرة وأبواب كثيرة مثل باب العيد ، وباب الذهب ، وباب الزعفران .

وبعد ذلك بنى العزيز قصراً أصغر من القصر الشرقى سمى بالقصر الغربى ، لأنه يقع غربى القصر الكبير ، وكان بين القصر الشرقى والقصر الغربى فضاء واسع أطلق عله « بين القصرين » .

ويفصل على مبارك فى خططه مدينة القاهرة التى بناها جوهر، ويصف شكلها فيقول : إنها كانت مربعة طول أضلاعها حوالى ألف ومائتا متر ومساحة

الأرض ثلاثمائة وأربعون فداناً . منها سبعون فداناً هى مساحة القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ، وخمسة وثلاثون فداناً للميادين ، ومائتا فدان توزعت على الفرق العسكرية .

وقد جعل جوهر لمدينة القاهرة أربعة أبواب منها : باب زويلة ، وباب النصر وباب الفتوح ، يتكون باب زويلة من بابين متجاورين ، وسمى باب زويلة نسبة إلى قبيلة زويلة إحدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من المغرب .

الجامع الأزهر

تم فتح مصر على يد جوهر فى ٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ ، وفى يوم الجمعة توجه إلى جامع عمرو لصلاة الجمعة .

وجامع عمرو هو أول جامع أنشئ بمصر . أنشأه عمرو بن العاص سنة ٢١هـ بعد فراغه من فتح الإسكندرية . ويعرف بتاج الجوامع ، والجامع العتيق ، وكانت مساحته وقت إنشائه ٥٠ ذراعاً ٣٠ يحيط به الطريق من كل جهة ، وتسوده البساطة .

وقد أنشئت مساجد متناثرة حسب إقامة قبائل الفتح ، كلها كانت مساجد صغيرة لم تؤد فيها صلاة الجمعة ، لأنها كانت تؤدى فى المسجد الجامع . وكان أحد هذه المساجد الجوامع جامع أحمد بن طولون . الذى بنى القطائع لتكون مقر الحكم وقصبة مصر . وقد بدأ ابن طولون ببناء قصره الفخم ، والميدان ، وبعد فراغه منهما شرع فى بناء الجامع سنة ٢٦٣هـ ، واستمر العمل حتى شهر رمضان سنة ٢٦٥هـ وهو يعتبر من أكبر المساجد حيث تبلغ مساحته مع الزيادات ستة أفدنة ونصفا ، وقد وضع تصميمه على مثال المساجد الجامعة ، صحن كبير مكشوف تحيط به أروقه ذات عقود ، وهو على شكل مربع تقريباً يحيط به من جوانبه القبلية والبحرية والغربية أروقة غير مسقوفة تعرف بالزيادات ، وهى من المسجد ،

وقد بنى الجامع على غرار مساجد بغداد ، والتى يشبهها جامع سوسه ، وتتميز مئذنته بأن سلمها من الخارج مثل جامع سرمن رأى ، وقد صمم الجامع بحيث يستقبل المصلين فى جميع الجهات . لذا فتح فيه ٢١ باباً يقابلها مثلها فى الزيادات يدخل منها المصلون من المساكن والأسواق المتناثرة حول الجامع .

وقد أراد جوهر ببناء الأزهر أن يشبه دخول الفاطميين لمصر بالفتح الإسلامى وإذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس بالفسطاط فالجامع الأزهر أول جامع أسس بالقاهرة . وقد أصدر جوهر أوامره ببناء الجامع الأزهر أثناء بنائه للقصر ليصلى فيه الخليفة . لأن الخليفة لن يحضر إلا بعد بناء القصر ، فلا بد أن يكون له مسجد ، وليكون مسجداً جامعاً للقاهرة أسوة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط والجامع الطولونى بالقطائع إلى جانب الهدف الأساسى من بنائه وهو جعله معهداً لتعليم الفقه الشيعى ونشره ، وقد بدأ فى بنائه فى جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ .

وانتهى العمل فيه ، وأقيمت به أول جمعة فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ وكان الأزهر وقت إنشائه مكوناً من ثلاث إيوانات . . حول الصحن ، الشرقى منها مكون من خمسة أروقة ، وبكل من الجانبين القبلى والبحرى ثلاثة أروقة .

وقد فتحت بأعلى الجدران شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية تتخللها أشكال متماثلة مزخرفة . أحيطت بإفريز مكتوب فيه بالخط الكوفى المزخرف آيات من القرآن .

وقد حرص الفاطميون على تسمية هذا المسجد الجامع بالأزهر حرصاً منهم على تذكير كل الأجيال أنهم نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول (حتى يضمنوا ولاء المسلمين الذين يحبون آل بيت رسول الله ﷺ)

وفى البداية صنع جوهر منبراً عادياً ثم صنع له منبراً آخر من الخشب المخروط

الجميل الصنع حل محل المنبر الأول الذى نقل إلى جامع الحاكم .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة فى موكب حافل للصلاة وقد جلس دعاة المذهب الشيعى للتدريس فى الأزهر فى البداية ، ثم تحول بعد ذلك إلى جامعة تدرس فيها العلوم فى عهد العزيز الخليفة الفاطمى .

ومع مرور السنين ، أصبح الأزهر جامعة ضخمة فخمة تدرس الدين والفقه على المذاهب الأربعة ، إلى جانب علوم اللغة والتوحيد والتفسير والحديث والمنطق والفلسفة وغيرها ، وأصبح قبله طلاب العلم ليس فى مصر فقط . بل فى العالم الإسلامى كله . بعد أن ذاعت شهرته وتخرج فيه العلماء الأجلاء ، وأصبح مقصد الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه .

قدوم المعز إلي مصر

كان جوهر من أخلص القواد . إذ إنه بعد أن فتح مصر لم يشأ أن يجشم المعز عناء البناء والإنشاء وتأمين مصر ، وإنما انتظر حتى بنى له مدينة خاصة ، وقصراً خاصاً ، وجامعاً خاصاً . ومهد لقدومه فى عز وإجلال لتعلو مكانته فى نفوس المصريين . وقد استغرق ذلك ٤ سنوات أدار فيها جوهر شئون مصر بكفاءة نادرة . بدأت من قدومه سنة ٣٥٨هـ حتى قدوم المعز سنة ٣٦٢هـ ، بعد ما كتب جوهر إليه يطلب منه الحضور إلى مصر ، وبعد أن خضعت مصر والشام والحجاز للفاطميين .

والصورة التى حضر بها المعز تكشف الهدف الحقيقى من فتح مصر ، وهو اتخاذها مركزاً أساسياً لنشر الدعوة الفاطمية . فعندما وصل الإسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢هـ لم يكن وحده ، أو اقتصر على أسرته فقط ، وإنما أحضر معه رجال دولته وأولاده وأخوته وأعمامه ومعه جثث آبائه المهدى والقائم والمنصور .

وقد صنع له جوهر استقبالاً لم يحدث لحاكم مسلم قبله . إذ كان فى استقباله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم قاضى القضاة ، وقد جلس المعز ، وخطب فيهم خطبة طويلة ذكر فيها « أنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ،

وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده ﷺ ثم وعظهم وأطال فى الوعظ حتى بكى بعضهم .

ثم بدأ المعز سيره من الإسكندرية إلى القاهرة فى أواخر شعبان سنة ٣٦٢هـ فوصل إلى الجيزة فى ٢ رمضان سنة ٣٦٢هـ فخرج إليه القائد جوهر ، وترجل عند لقائه ، وقبل الأرض بين يديه ، ثم استقبل الوزير أبا الفضل جعفر بن الفرات وبقى ثلاثة أيام بالجيزة . عبر جنوده بأمتعتهم النيل أثناءها من شاطىء الجيزة إلى ساحل مصر . وفى يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة ٣٦٢ عبر المعز النيل ، ودخل القاهرة دون أن يمر بالفسطاط ، ونزل بالقصر الذى بناه له جوهر وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين وصلى معه كل الحضور ، وأصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة ، وأصبحت القاهرة مركز هذه الإمبراطورية ، وأقام مع المعز فى القصر أولاده وحاشيته ، وكان جوهر يقيم فى ذلك القصر . فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ، ولم يحمل معه شيئا من الأثاث ، ونزل فى داره بالقاهرة .

وجلس المعز فى قصره ، وأذن بدخول الناس عليه ، فدخل الأشراف ثم الأولياء وجوهر يقدم الناس طبقة بعد طبقة ، ثم قدم جوهر هديته إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، وهى عبارة عن مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة ، بعض هذه السروج واللجم موشى بالذهب بعضها مرصع بالجواهر ، وتسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلةللنقل ، وتسعون نجيباً « الأصيل من الجياد » وأربعة صناديق بداخلها أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ، وغير ذلك من هدايا جوهر لمولاه المعز .

وقد حرص المعز على زرع حبه فى قلوب المصريين ، بإظهار التسامح والعطف ، فكان أول قرار له بعد الانتهاء من تقديم الهدايا والتحف هو الأمر بإطلاق جميع من اعتقل من الإخشيديين والكافوريين ، ثم بالغ فى إكرام جوهر ولإضفاء الهيبة على رجاله ، وتشجيع النابهين على التفانى فى خدمته . فلم يكد ينتهى من صلاة عيد الفطر حتى خلع على جوهر خلعة مذهبة وعمامه ، وقلده

سيفاً وعشرين فرساً مسرجة ملجمة ، ومنحه خمسين ألف دينار ومائتى ألف درهم .

لكنه رغم الإكرام ، عمل على تقليص دوره ، ربما خوفاً عليه من الغرور. فبعد أن ظلت الأمور فى مصر فى يد جوهر استأثر المعز بكل الأمور منذ قدومه ٣٦٢هـ وسحب كثيراً من اختصاصات جوهر ، وقلدها ليعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن .

وبهذه الإجراءات ألقى المعز ظلالاً كثيفة على جوهر ، وجعله يتوارى عن مسرح الأحداث السياسية فى مصر التى فتحها .

لكن أراد الله أن يخرج جوهراً من الظل ، ويصبح نجما وقائداً من جديد ، وذلك أن المعز توفى فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ وتولى الخلافة ابنه العزيز ، وفى ذلك الوقت كان خطر أفتكين والقرامطة قد عظم وتفاقم على الخليفة المعز .

ولم يشأ العزيز أن يستعمل السيف قبل بذل اللين والحكمة ، فكتب إلى أفتكين رسالة يستميله فيها ، ويمنيه بالمكافأة إذا جلا عن دمشق ، ولكن أفتكين رد على العزيز معتزاً بنفسه وبما حققه قائلاً :

« هذا بلد أخذته بالسيف ، وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل أمراً » .

وكان العزيز سياسياً بارعاً ، فلم يتخذ قراراً قبل المشورة ، وكان ممن استشادهم الوزير يعقوب بن كلس الذى أشار عليه أن يجهز جيشا ، ويولى قيادته لجوهر ليزحف به على دمشق ويهاجم أفتكين .

وهكذا يظهر جوهر على الساحة مرة أخرى وكان جوهر عند حسن ظن العزيز كما كان عند حسن ظن أبيه سابقاً .

وسار جوهر سنة ٣٦٦هـ على رأس جيش كبيرلقتال أفتكين والقرامطة ، وفى البداية استعمل أسلوب العزيز . فكتب إلى أفتكين بلين ورفق وقدم له الأمان من العزيز والهدايا ثم طلب منه الكف عن القتال وترك الفتنة . فكتب إليه أفتكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز . لكنه اعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء فى

كتابه .

وكان لا بد من الاحتكام للسيف . فدارت بين جوهر وأفتكين حروب طويلة أبدى فيها أفتكين شجاعة نادرة ، وطلب معاونة الحسن القرمطى على قتال المغاربة. فاستجاب الحسن القرمطى ، وتفاقم الخطب على جوهر وجنوده ، وهنا ظهرت حنكته الحربية حين طلب الصلح مع أفتكين على أن يجلو عن دمشق ، فأجابه أفتكين إلى طلبه ، فرحل جوهر عن دمشق ، لكن الحسن القرمطى بعث سرية لقتاله. فاشتبكت معه فى معركة طاحنة قتل فيها كثير من العرب ، ثم خطط القرمطى للقضاء النهائى على جوهر وجنوده ، فعبأ قواته وقوات أفتكين لقتال جوهر وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً أدركوا جوهراً عند نهر الطواحين ، وهو المورد الوحيد للماء . وأدرك جوهر حجم الكارثة المتوقعة ، فكتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء ، ولا قبل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان . فأذن له وتحالفت كل الظروف ضد جوهر بعد ما ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار .

لكن قوات أفتكين والقرمطى لم تأخذ الفرصة السانحة ، وزحفت إلى عسقلان وهنا تجلت عبقرية ودهاء جوهر ، الذين أنجز بهما ما عجز عن تنفيذه بالسيف ، وأنقذ جيوشه من الفناء ، فقد أرسل إلى أفتكين يطلب منه هدنة للمفاوضات وإحلال الوئام وحين اجتمع بأفتكين قال له : « علمت ما يجمعنى وإياك فى حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت وأريقت فيها الدماء ونحن المأخوذون بهما عند الله ، وقد دعوتك إلى الصلح والموادعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذلت لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول ممن يشعل نار الفتنة ويستر عنك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وغلب رأيك على هوى غيرك » .

وكانت هذه الكلمات بمثابة الماء الذى ألقى على النار التى تغلى فى صدر أفتكين الذى أجابه : « أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك ، لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه معى » وهنا ظهرت

مهارة جوهر في استمالة أفتكين . إذ خاطب فيه النخوة ، واستثار فيه الرحمة وجعله نفسياً يشعر أنه في موقف المتعطف والممتن حين قال له : إذا كان الرأى والأمر فإنى أصدقك على أمرى تعويلاً على الأمانة ، ولما أجده من الفتوة عندك فقد ضاق الأمر ، وامتنع الصبر . أن تمن على بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتأذن لى لأمضى وأعود إلى صاحبى شاكراً ، وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت على وعلى صاحبى منه تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها » .

فقال أفتكين : « أفعل وأمن على أن أعلق سيفى ورمح الحسن بن أحمد القرمطي على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتهما . فرضى جوهر بذلك ، وتعاهدا وأخذ جوهر ختم أفتكين رهينة على الوفاء .

ولكن عندما وصلت الأخبار إلى الحسن القرمطى أحس بالخديعة ، واغتاظ كيف فات دهاء جوهر على أفتكين ؟ فأسرع إليه وقال له : « لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته ، وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده معك ، وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة فيأخذنا ، ومن الصواب أن ترجع عن ذلك حتى يهلك هو وأصحابه جوعاً ، ثم نأخذهم بالسيف » ولكن أفتكين رد عليه « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجيز الغدر به ، ثم علق السيف والرمح فخرج جوهر وأصحابه من تحتهما » .

وعندما وصل جوهر إلى القاهرة ، ودخل على الخليفة العزيز وشرح له استفحال أمر أفتكين ومن معه . طلب العزيز المشورة . فقال جوهر : « إن كنت تريدهم ، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على أثرى » .

فأحس العزيز بصدق النصيحة ، ورأى أن الأرض تهتز تحت أقدام الفاطميين فجهز جيشاً عظيماً قاده بنفسه ، وأخذ معه جوهراً ، فتجهز له أفتكين والقرمطى فالتقى الجيشان فى الرملة ، وحمى وطيس القتال ، وحمل أفتكين على ميسرة الفاطميين فقتل الكثير منهم ، وحمل العزيز على ميمنة جيشى القرمطى وأفتكين وسرعان ما دارت الدائرة عليهما وهزما فى يوم الخميس ٢٣ من محرم سنة ٣٦٧

فاعمل العزيز السيف فى جيشهما وقتل نحو عشرين ألف رجل .

وبذلك قضى العزيز على هذه الفتنة ، وقبض على أفتكين وسار به إلى القاهرة ومعه كثير من الأسرى ، وظهرت حنكة العزيز حينما استفاد بالأسرى ، وبدلاً من حبسهم وإطعامهم ، أحسن إليهم ، وكلفهم بأعمال تنتج للدولة ، وتظهر أيضاً صفة من أهم صفات العزيز بالله وهى العفو . حيث عفا عن أفتكين وأسكنه داراً فسيحة وأغدق عليه ، وظل على ذلك حتى مات سنة ٣٧٢هـ ولعله بذلك يرد جميله الذى طوق به عنق جوهر وجيشه حينما سمح لهم بالخروج من عسقلان ، ولم يستجب للقرمطى ويقتلهم .

وفاة جوهر الصقلى

نفذ جوهر السياسة الفاطمية التى كانت ترمى إلى جعل مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق . لتأسيس خلافة فاطمية ، وكان بلاء جوهر الحسن فى القضاء على القرامطة إنجازاً لا يقل عن فتح مصر . إذ لو لم يخدع جوهر أفتكين ويستنقذ منه جيشه لقضى القرامطة على الخلافة الفاطمية .

ومآثر جوهر على الفاطميين تماثل مآثر أبو مسلم الخراسانى على العباسيين وانجازات جوهر للفاطميين كثيرة . إلا أن العباسيين غدروا بمسلم ، والفاطميين أكرموا جوهراً فهو منشيء القاهرة التى أصبحت منار الحضارة الإسلامية ، وأصبحت مركزاً للعلوم والفنون والآداب .

وقد كان جوهر مثالاً للحاكم العادل . إذ كان يقضى بين الناس بالعدل ، يرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدى العابثين ، وقد ضرب على أيدى الجند المغاربة ، ومنعهم من التعدى على الناس ، ويمكن أن نقول بكل اطمئنان : إن جوهراً يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية فى مصر والشرق .

وإذا كان جوهر توارى فى ظل المعز ، فإنه عاد للظهور فى عهد العزيز ، وكان أحد أسباب القضاء على خطر القرامطة وأفتكين .

ورغم إنجازات جوهر فلم يداخله الغرور يوماً ، بل كان واقعياً لا يكابر يعترف بواقع الأحداث ، فقد ذكر المقريزى « أن منجوتكين التركى خرج من قصر

العزيز سنة ٣٨١ وهو ممتط جواده وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة ، وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتنهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق لها صدره ، وقال « لا حول ولا قوة إلا بالله » فنزع جوهر يده منه وقال : « قد كنت عندي يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لكل زمان دولة ورجال أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا؟ لقد ترجل لي مولانا المعز ، لما سرت إلى مصر، وأولاده وإخوته وولي عهده وسائر أهل دولته ، فتعجب الناس من ذلك . وها أنا اليوم أمشي راجلاً بين يدى منجوتكين . أعزونا ، وأعزوا بنا غيرنا ، وبعد هذا أقول « اللهم قرب أجلي وموتي فقد أنَفْتُ على الثمانين » .

وقد استجاب الله دعاء جوهر ، فتوفى جوهر في يوم الإثنين ٢٣ ذي القعدة سنة ٣٨١هـ وقد أعز الخليفة العزيز قدره ، وتصرف بما يليق بمن أقام ملكهم . فبعث إليه بالحنوط ، هو وابنه المنصور . فكفن جوهر في سبعين ثوباً ما بين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن بالقرافة الكبرى ، وخلع العزيز على ابنه الحسين ابن جوهر ، وجعله في رتبة أبيه ، ولقب بالقائد بن القائد

وهكذا مات جوهر الصقلي الكاتب والقائد والسياسي الماهر .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

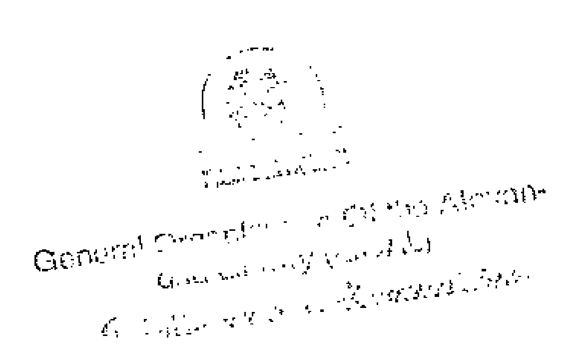
المقدمة ٥

أحمد بن طولون ٧

الناصر صلاح الدين ٢٣

الظاهر بيبرس ٦٩

جوهر الصقلي ١٢٨



هذا الكتاب

يتناول سيرة أربعة من القادة الذين عملوا أعمالاً تذكر فتشكر وسجلوا تاريخاً بحروف من نور ، حرصنا على أن يعرف الأجيال مدى الجهد الخلاق الذى بذل من أجل حضارة الأمة وإعلاء شأنها لعل ذلك يكون دافعاً لهم ليضيفوا لتاريخ بلادهم المجيد مجداً تذكره الأجيال من بعدهم وليس هذا على الله ببعيد.

الناشر

